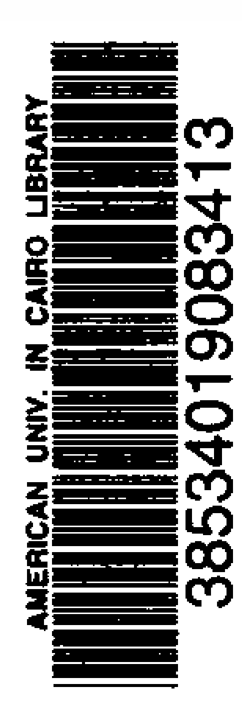
اقرأ

محمود كامل

تحرير وادى النيل

ديسمبر سنة ١٩٥١

دار المعارف بمصر


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
38534019083413

تحرير وادى النيل

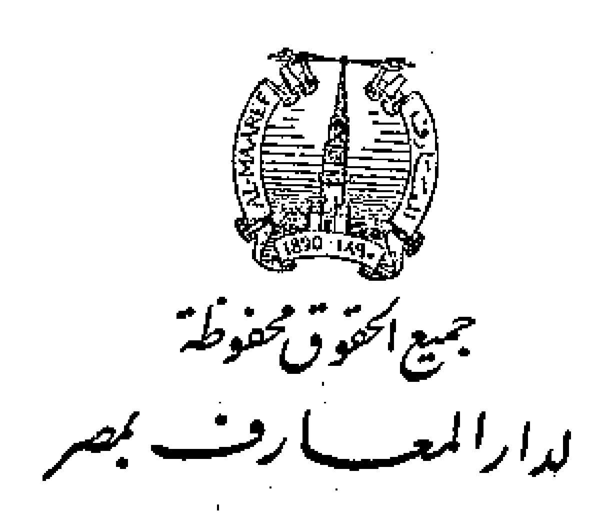
ديسمبر سنة ١٩٥١

محمود كامل

تحرير وادى النيل

اقرأ ١٠٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٧ – ديسمبر سنة ١٩٥١



كلمة المؤلف

يقول أميل لودفيج فى كتابه « النيل » إن مصر هى القطر الوحيد على سطح الأرض الذى يعيش فيه كل مصرى دون أن يختفى منظر النهر من أمام عينيه وأن الدول المتعاقبة على حكم مصر أتت فاستخدمت النهر ثم ذهبت ولكن النهر والد تلك الأرض الطيبة خلد على مر الدهر .

ويقول ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » إنه إذا نظر القارئ إلى خريطة النيل فإنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الدهشة للشبه الشديد بين النيل وشجرة النخيل ففى الجزء الأعلى تجد الخضرة وأرض الدلتا الخصبة وهى تنتشر كفروع الشجرة ذات الأوراق النضرة وقد تلاحظ أن جزع الشجرة يتعرج تعرجاً طفيفاً لأن النيل ينساب متثنياً وسط الصحراء . وفى جنوب الخرطوم نجد الشبه تاماً بين مجرى النيل وشجرة النخيل فإن جذوع هذه الشجرة تبدو متسربة فى أعماق جنوب السودان . ولا أستطيع أن أتخيل صورة أفضل من هذه الصورة لإبراز العلاقة الدقيقة

الوثيقة بين مصر والأقاليم الجنوبية . فالماء — وهو حياة الدلتا — يأتي من السودان وينساب في مجرى النيل كما ينساب عصير الحياة في جزع الشجرة صاعداً إلى فروعها منتجاً خير الفاكهة . وفائدة مصر من هذه الصلة بديهية لا تحتمل مناقشة ولكن هذه الفائدة لا تعود على مصر وحدها فإن الصلة بين مصر والسودان تعم مزاياها الاثنين معاً وهما يتبادلانها وإذا كان السودان جزءاً لا ينفصل عن مصر من الوجهة الطبيعية والجغرافية فإن صلة مصر بالسودان ضرورية ضرورة حتمية لتقدم ورفاهية السودان . وماذا تكون فائدة الجذور والأرض الخصبة إذا انتزع الجزع عنوة وهو الذي بدونه لا يمكن أن يصل عصير الحياة إلى فروع الشجرة المورقة في الهواء الأعلى ؟ .

ومن الأخطاء الشائعة أن وادي النيل قاصر على مصر والسودان . فالواقع أن هذا الوادي يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك إذ أن منابع النيل الأبيض — وسنرى أن هذا النيل يحمل أسماء مختلفة في سيره من الجنوب إلى الشمال — موزعة في ثلاثة أقطار مزقها الاستعمار الأوروبي وفرض حدوداً جغرافية بين كل منها . وجعل لكل منها شكلا سياسياً خاصاً من أشكال الحكم . وهذه الأقطار هي أوغندا الموضوعة تحت حماية بريطانيا

وتنجانيقا المشمولة بوصاية بريطانيا منتدبة من هيئة الأمم المتحدة . وكينيا التى لا تزال تعد مستعمرة بريطانية .

فجبال رونزورى Ruwenzori — التى يسميها النيليون من أهالى المنطقة جبال القمر — التى تنساب منها مياه الأمطار إلى بحيرة فيكتوريا تقع فى أوغندا التى تشغل بحيراتها سدس مجموع مساحتها. ومن هذه البحيرات بحيرة إدوارد وبحيرة جورج وبحيرة البرت التى تحمل معظم المياه الهابطة من جبال رونزورى إلى النيل .

وتضم أوغندا الوديان التى تتجمع فيها مياه الجزء الأول من النيل الذى يسمى باسم نيل فيكتوريا . وبحيرتى إبراهيم « كيوجا » وكيوانيا اللتين تعترضان طريق نيل فيكتوريا بين بحيرتى فيكتوريا وألبرت . كما تضم قناة كازينجا التى تصل بين بحيرتى إدوارد وجورج . والجزء الأخير من نهر سمليكى الذى يغذى بحيرة ألبرت — وسنرى فيما بعد أنه اكتشف باسم مصرفى عهد إسماعيل — ونهر كافو الذى يغذى بحيرة إبراهيم وأخيراً فإنها تضم بحيرة سالسبورى التى تغذى نيل فيكتوريا بمياه الأمطار التى تهبط على جبل الجون . ونهر أسوا الذى يغذى النيل على مقربة من الابراهيمية « نيمولى » .

ومن المجمع عليه أن أوغندا — الواقعة تحت الحماية

البريطانية — تعد من الوجهة الجغرافية بمجموع مساحتها حوض النيل الأعلى فنيل فيكتوريا — وهو الاسم الذى يطلق على الجزء الأول من النيل والذى يبلغ طوله ثلاثمائة ميل — يبدأ من نقطة فى أقصى شمال بحيرة فيكتوريا عند چينچا وتعترضه هناك شلالات ريبون فى أرض أوغندا . ثم تعترضه بعد ذلك شلالات أوين فى هذه الأرض نفسها فإذا مر ببحيرة ابراهيم «كيوچا» — وسنرى فيمابعد أنها بحيرةاكتشفت باسم مصروأطلق عليها بحيرة إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر عند اكتشافها — انساب بعد ذلك إلى بحيرة كيوانيا ثم إلى بحيرة ألبرت — وسنرى فيما بعد أن أول باخرة مخرت مياهها كانت باخرة مصرية فى عهد إسماعيل — حيث تعترضه فى أقصى شمالها شلالات ميرشيسون ومن هناك يحمل الجزء الثانى من النيل اسمه الثانى نيل ألبرت الذى يبلغ طوله مائة وخمسين ميلا إلى الإبراهيمية «نيمولى» — وسنرى فيما بعد أنها نقطة على النيل تسمى الإبراهيمية تيمناً باسم والد عاهل مصر الذى وصل المصريون فى عهده إليها وأن الاستعمار شاء بعد ذلك أن يعيد إطلاق اسمها القديم عليها — وأخيراً فإن نهر كاچيرا الذى كان يسمى « النيل » والذى يعد واحداً من نحو خمسة عشر نهيراً تغذى النيل عند بحيرة فيكتوريا بمياه الأمطار

الهابطة من جبل الجون يبلغ طوله أربعمائة وخمسين ميلا ويمر في أراضي أوغندا ويسميه النيليون المقيمون في هذه المنطقة « أم نهر چنچا » باعتبار أنه يغذى بمائه النهر العظيم الذى يخرج من بحيرة فيكتوريا عند چنچا .

وفى كينيا — وهى مستعمرة بريطانيا — يقع الحوض الذى يضم النهيرات التى تشترك فى تغذية بحيرة فيكتوريا وأهم هذه النهيرات « « نوزيا » و « يالا » و « مارا » .

وفى « تنجانيقا » الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة التى انتدبت بريطانيا لإدارتها — تقع بحيرة تنجانيقا وهى أطول بحيرة عذبة المياه فى العالم إذ يبلغ طولها ستمائة وأربعين كيلومتراً والتى تغذى بعض منابع النيل كما تقع النهيرات التى تشترك فى تغذية بحيرة فيكتوريا وأهمها «مورى » و «مارا» — الذى رأينا أنه يمر بأرض كينيا — و« كاجيرا » — الذى رأينا أنه ينتهى فى أوغندا .

وأخيراً يقع الجزء الجنوبى من بحيرة فيكتوريا وخليج أمين الذى يحمل اسم آخر حاكم من قبل مصر على المديرية الاستوائية المصرية .

* * *

من ذلك كله يتضح أن حوض النيل الأعلى بأجمعه

— أى بجميع الجبال والبحيرات والأنهار والنهيرات التى تتجمع فيها مياه النيل الرئيسى — إنما تقع فى أراض شاء الاستعمار الأوروبى أن يفصلها عن مصر رغم ما سوف يتبين فى هذا البحث العلمى من قيام وحدة جغرافيه وتاريخية و « جنسية » — اتنولوجيك — ولغوية .

وسوف نبحث فى هذا الكتاب مدى هذه الوحدة بحثاً علمياً خالصاً ومدى ما اجترأ عليه الاستعمار الأوروبى فى وادى النيل لتمزيق هذه الوحدة ومدى الجهود التى بذلت لتحرير وادى النيل من هذا الاستعمار مؤمنين بأن واجب مصر والسودان — بعد إلغاء معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا التى وقعت عام ١٩٣٦ واتفاقى الحكم الثنائى اللذين وقعا عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان— أن تتجه أنظارهما إلى هذا الوادى جنوباً وأن تشتركا اشتراكاً إيجابياً مثمراً فى إتمام الخطوات التى بدأت لتحرير ما لم يتم تحريره من أراضى هذا الوادى .

ولكى نتبين أهمية هذا البحث يحسن أن نذكر أن مساحة الأقطار التى يمر فيها النيل من منبعه إلى مصبه تبلغ خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة تشغل مصر والسودان نحو ثلثيها إذ تبلغ مساحتهما ثلاثة ملايين وستمائة

ألف كيلومتراً مربعاً بينما تبلغ مساحة أوغندة وكينيا وتنجانيقا مليوناً وسبعمائة وثمانية وخمسين ألفاً . فإذا تذكرنا أن مساحة الجزر البريطانية — إنجلتره وويلز واسكتلنده وايرلنده — هى مائتان واثنان وأربعون ألفاً من الكيلومترات المربعة لعلمنا أن الأقطار الواقعة على جانبى النيل تبلغ مساحتها ثلاثة وعشرين ضعف مساحة الجزر البريطانية ؛ كما أن مساحة هذه الأقطار النيلية تبلغ أكثر من نصف مجموع مساحة أوربا التى تفرض استعمارها العاتى على أفريقيا إذ أن مساحة أوروبا لا تزيد عن عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة .

ولكى أختم هذه المقدمة يجب أن أضيف أن هذه الأقطار النيلية تبلغ مساحتها أكثر من سدس مجموع مساحة إفريقيا كما أن هذه الأقطار تضم نحو ثلث مجموع سكان هذه القارة الأفريقية.

محمود كامل

المحامى

الشعوب النيلية

من ظواهر الجغرافية الإنسانية فى القارة الإفريقية أنه لا توجد فى قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها وانعدام هذه الحواجز هو الذى ساعد على هجرة القبائل الإفريقية من مكان إلى آخر كما ساعد على امتزاج هذه القبائل وعلى التشابه فى ثقافاتها . كما أنه لا توجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التى تكون سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الأجناس الرحالة ارتفاعاً عظيماً(١).

وأجناس أفريقيا الرئيسية هى :

١ ــ سكان الغابات والمناطق غير المطروقة المعروفون باسم « البوشمان » Bushman .

٢ ــ الزنوج الذين يسميهم التعبير الأتنولوجى الأوروبى Negro .

٣ ــ الحاميون الذين يقطنون شرق القارة .

---

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر ــ كلمة Africa عند الكلام على الأجناس الإفريقية Ethnology

٤ — الليبيون .

٥ — الساميون .

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته وسمرة بشرته سمرة مائلة إلى الاصفرار . وكان « البوشمان » يقطنون فى بادئ الأمر فى جنوب إفريقيا فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت Hottentots الرعاه و « البانتو » Bantu المزارعون وهى قبائل تقطن جنوب غرب أفريقيا إلى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا أى إلى منطقة منابع النيل . ولا شك أن أوجه الشبه كبيرة بين « البوشمان » وبين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهى تبدو فى قصر القامة والبشره السمراء المصفرة .

أما القسم الثانى من الإفريقيين — أى الزنوج — فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى وهذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها أيضاً القبائل الرحالة التى تكونت من امتزاج الليبيين فى شمال أفريقيا بالعرب الساميين وبالحاميين فى الشمال الشرقى من القارة .

والقسم الثالث من الأجناس الإفريقية — الحاميون — يسكنون الصومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم — الليبيون المعروفون بالبربر — يسكنون شمال

أفريقيا فى الجزائر ومراكش وهم شعب أبيض تأثر فيما بعد بالطابع العربى .

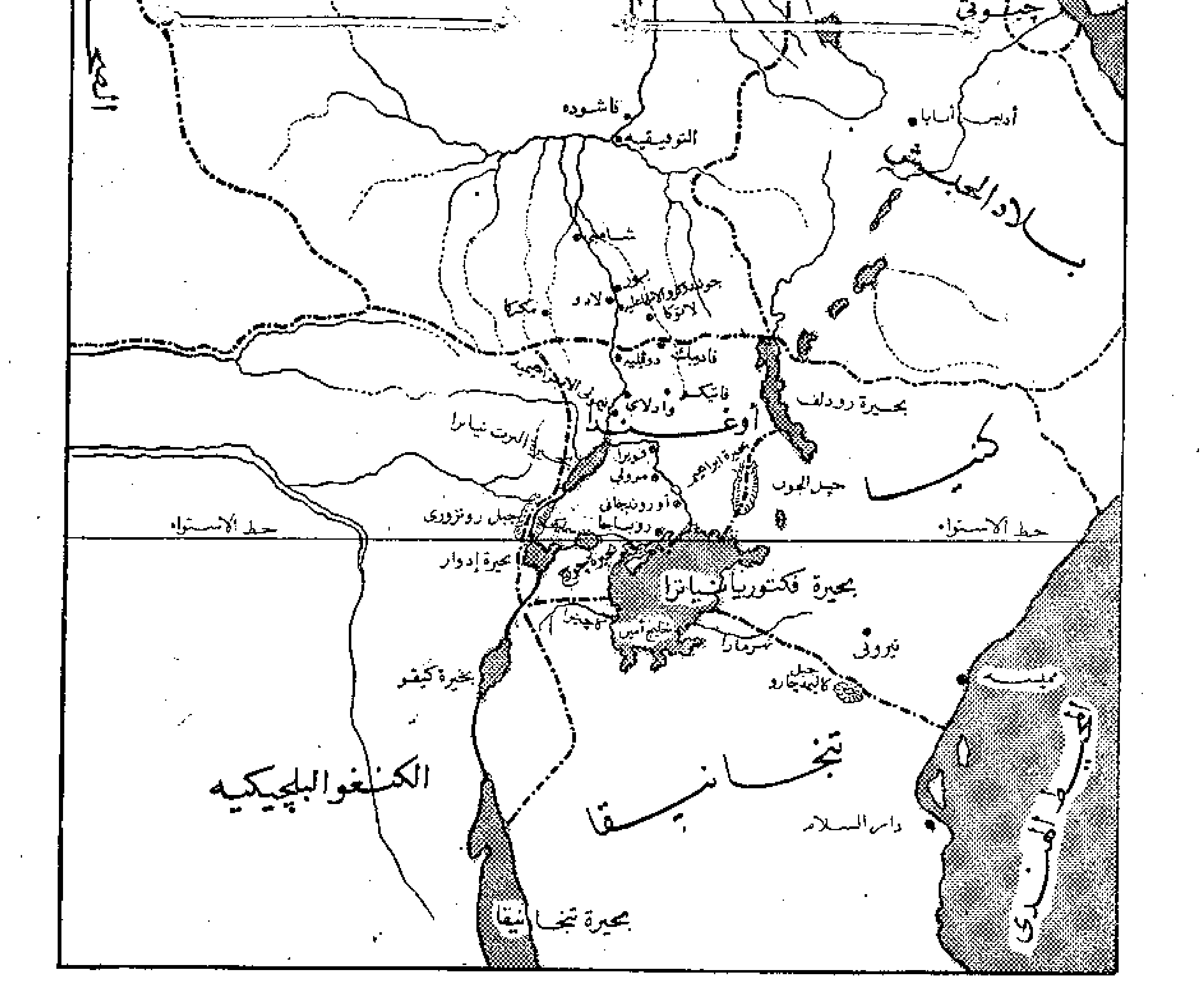
والقسم الخامس — الساميون — يسكنون شمال شرق أفريقيا أى مصر وشمال السودان وما جاورهما .

ومن الثابت أن مصر — دون سائر دول العالم التى تعتبر متمدينة فى العصر الحالى — قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل أن تنشأ فى غيرها. ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها فى أرجاء العالم الآخر التى كان آدميوها يتحركون فى غاباتها إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه كافة المؤرخين الذين توافروا على دراسة تاريخ مصر القديم فلا شك أن المصريين شعب له كيانه الخاص ومقوماته « الأتنولوجية » المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التى مرت مثله فى عصور ما قبل التاريخ . أى العصور السابقة لاستخدام الإنسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول . وعصر الحجر المصقول . وعصر الانتقال من استخدام الحجر إلى استخدام المعدن . والشعبان اللذان مرا مثله — ومعه — فى تلك العصور هما الشعب الكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى الهند . وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر

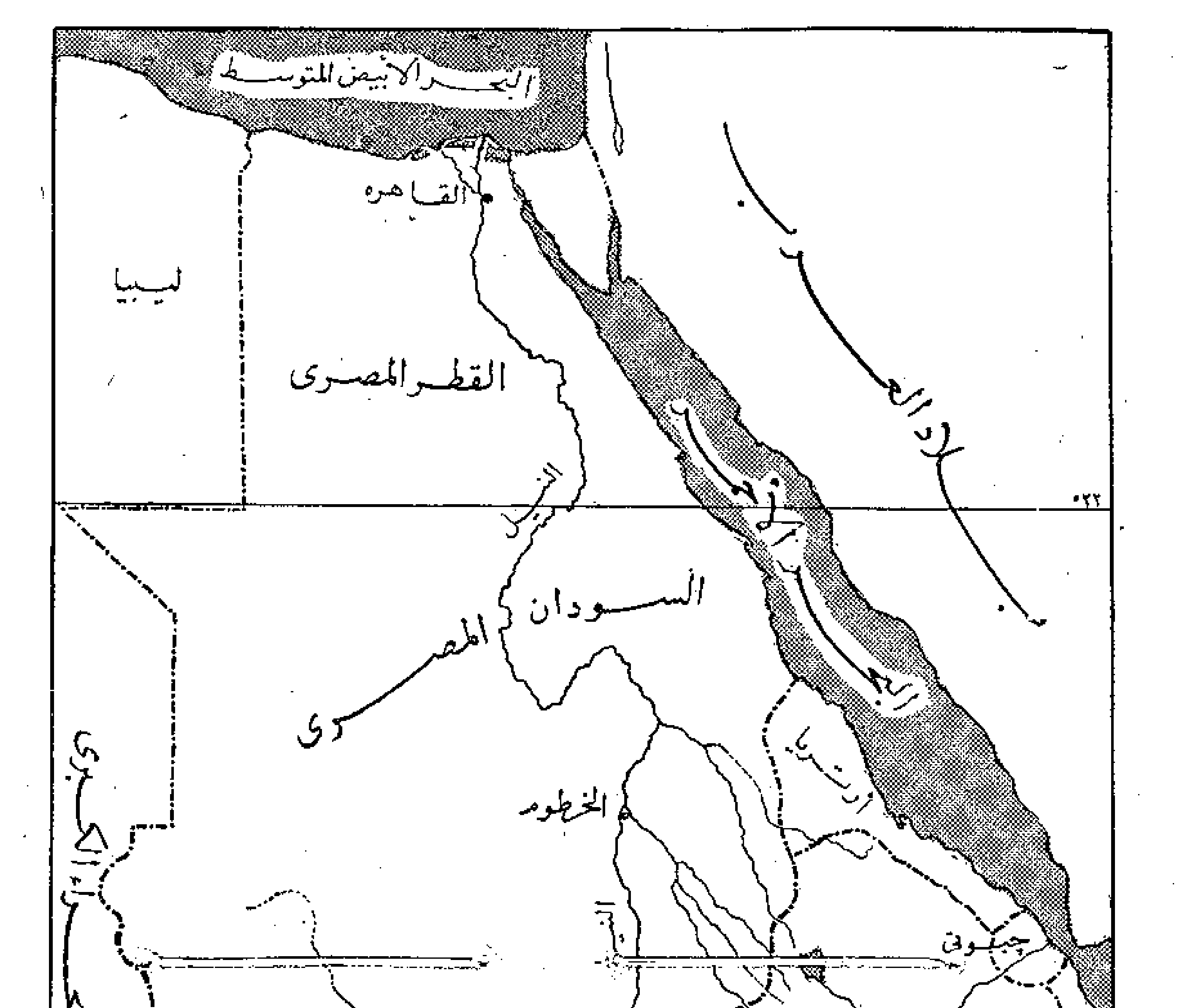
الحجرى على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجرى هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار على أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجرى — أى عصر ما قبل التاريخ — إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع .

ومن الثابت أن أول مدنيتين ازدهرتا فى التاريخ هما مدنيتا المصريين والكلدانيين ولكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلفتها وجمالها. ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ. ويمكن للمؤرخ أن يتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الاجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلا بدون انقطاع إلى يومنا . وهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ أى مدنية أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية فى العالم .

والراجح علميا أن الإنسان قد ظهر فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها من شمال أفريقيا قبل أن يظهر فى غيرها من بقاع العالم . ففى الوقت الذى كان الثلج يغمر أوربا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاعاً تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجوب فيها الحيوانات . وقد وجدت حول الجزائر وعلى مقربة



بلاد الحبشة
أديس أبابا
فاشوده
التوفيقية
شامبي
بحيرة رودلف
كينيا
أوغندا
جبل الجون
خط الاستواء
خط الاستواء
جبل روتزوري
بحيرة إدوار
بحيرة فكتوريا نيانزا
نيروبي
ممباسه
دار السلام
تنجانيقا
بحيرة كيفو
الكنغو البلجيكيه
بحيرة تنجانيقا



البحر الأبيض المتوسط
القاهره
ليبيا
القطر المصرى
النيل
السودان المصرى
الخرطوم
ارتريا
جيبوتى
البحر الأحمر
بلاد العرب
٣٢°

من تونس آثار عرف عمرها من عدد طبقات الأرض التى تراكمت فوقها وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحل . كما أن صور الحيوانات التى كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران فى بعض جهات السودان . وقد وصل هؤلاء الصيادون إلى حافة المنخفض الذى كان النيل يجاهد لكى يحفر لنفسه ممراً فيه . وفى العصر الثلجى الأول لأوروبا تمكن النيل من أن يجد منفذاً بين أحجار الجرانيت فى النوبة فوصلت مياهه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الثلجى الثانى لأوربا اجتذب وادى النيل بمائه ونباتاته وحيواناته صيادى المناطق المجاورة [١] ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجرى الأول Palœolithic إلى العصر الحجرى المهذب Neotithic الذى يحسن أن يسمى العصر النحاسى Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجرى بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى وقد اتضح من الحفائر العميقة فى دلتا النيل وجود أوانى خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً .

(١) A. Moret, G. Davy : rom Tribe to Empire p. 117, — 118

وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام[1] ومن المحتمل أنهم الشعب الذى عاش بين عصر الصحراء الحجرى والعصر النحاسى الذى جاء بعده وهو العصر الذى يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد[2].

ومن الثابت أيضاً أنه لا توجد آثار تدل على وجود الإنسان فى سوريا أو بين نهرى دجلة والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفى ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه . ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى الظروف الاستثنائية التى أتاحها لهم وادى النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجانب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدماً أو رقياً[3].

ولعل أحسن رد على ما زعمه بعضهم من أن أوجه الشبه التى بين آثار الكلدانيين التى من العصر الحجرى وآثار

---

(١) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307.

(٢) J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte p. 100.

(٣) موريه وديفى المرجع السابق ص ١٢٢

المصريين التى من نفس العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة الكلدانيين هو ما ذكره أحد كبار الثقات فى التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمة وأنه ليس هناك ما ينبئ أن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل إن من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة الكلدانيين بأنه حدث فى وقت انتقال الحضارة المصرية إلى الخارج(١).

وقد انتهى العصر الحجرى فى مصر — وكان لا يزال مستمراً فى غيرها كما قلنا — حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التى توالت على حكم مصر. ويجمع العلماء فى علم الأجناس على أن الشعوب الحامية التى كانت تسكن شمال القارة الإفريقية حول وادى النيل هى التى تولت مهمة التوسع فى قلب القارة فى عصر ما قبل التاريخ وهذه الشعوب الحامية أرست أسس تقدم مصر تحت ظل الحضارة الزراعية وهى تنتمى إلى مجموعة « جنسية » تسكن شمال شرق القارة امتازت بروح تقدمية وقد انتقل هذا الشعب من شمال شرق أفريقيا إلى شرقها فى عصر ما قبل التاريخ ولم يتوقف هناك إذ أنه توغل فى منطقة خط الاستواء وتدل

(١) Gordon Childe : L'Orient Préhistorique

وسائل الزراعة التى استخدمت لدى السودانيين ثم لدى « البانتو» – التى سبق أن ذكرنا أنها قبائل امتازت باحترافها الزراعة فى أفريقيا الاستوائية – على مدى الأثر الذى تركه خاصة الشعب الحامى أو الذى تأثر بالحضارة الحامية فى أفريقيا الشرقية وافريقيا الوسطى . وعلى مدى ما تركته هذه الهجرة الحامية القادمة من الشمال عبر الصحراء فى شعوب أفريقيا الوسطى .

وقد لوحظ فى كل أفريقيا الشرقية أن الأجناس الحامية قد طبعت منذ عصر ما قبل التاريخ حضارتها كما تثبت ذلك الحفائر فى أراضى كينيا وتنجانيقا(١) .

وثابت أيضاً أن قبائل « البوشمان » – التى سبق أن ذكرنا أنها القبائل الرحل التى تعيش فى الغابات، والتى هاجرت من جنوب غرب أفريقيا إلى منطقة بحيرة تنجانيقا – وقبائل « البيجمى » Pygmees وهى قبائل الأقزام التى تعيش فى منطقة خط الاستواء قد استخدمت منذ عصر ما قبل التاريخ القوس ذا السهم المسمم فى صيد الحيوانات ولم يحدث ذلك مصادفة فإن الباحثين فى علم الأجناس يقررون أن

---

(١) P.Laviosa Zambotti : Les Origines et La Diffusion de la Civilisation P. 50, 120.

استخدام القوس ذى السهم المسمم كان من دأب الشعوب الراقية فى العصر الحجرى الأول وأن أفريقيا قد استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الصيد فى العصر الحجرى المهذب « نيوليتيلك » وأن الشعوب الحامية التى اتجهت من شمال القارة إلى شرقها و وسطها سعياً وراء التوسع قد نقلت معها هذه الوسيلة وأنه لا تزال هناك قبائل من صيادين حاميين تعيش فى كينيا وفى تنجانيقا تستخدم إلى اليوم القوس ذا السهم المسمم وأن من الراجح أنها فى ذلك تتابع الوسيلة التى نقلتها القبائل الحامية القادمة من الشمال إلى الجنوب [١].

ولم يقتصر أثر الحضارة الحامية التى انتقلت من شمال أفريقيا إلى وسطها أو بتعبير أدق من دلتا النيل إلى منطقة منابع هذا النيل على هذه الوسيلة البدائية من وسائل الصيد بل أنه تعداه إلى مظاهر أخرى ووسائل أخرى من وسائل الصيد التى كانت تستخدمها مصر قبل الأسرة الملكية الأولى . وأن زراعة الخوص اللازم لصناعة المقاطف والتى لا تزال سارية فى كينيا وأوغندا وتنجانيقا أدخلت إلى هذه الأقطار الواقعة حول حوض النيل الأعلى بواسطة الشعوب الحامية المهاجرة

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣

من الشمال فى ذلك العصر الحجرى(١) .

ولم يقتصر بحث العلماء فى علم الأجناس على هذه الناحية من تقرير أثر الشعوب التى كانت تعيش فى شمال وادى النيل على الشعوب التى كانت تعيش فى جنوب هذا الوادى بل إن المتخصصين فى علم اللغات من هؤلاء العلماء قد قطعوا بوجود نوع من الوحدة بين لغات الشعوب النيلية رغم ما يبدو من اختلاف بينها فقد ذهب العلامة الألمانى راينيش Reinisch إلى أن هناك وحدة لغوية للقارة الإفريقية وأن اللغات الحامية قد تركت طابعها على لغات وسط أفريقيا . وأن اللغة النوبية إنما هى أقرب إلى هذه اللغات الحامية بما فيها اللغة المصرية القديمة منها إلى أى لغة أخرى . وذهب العلامة الألمانى «ماينهوف» Meinhof إلى أن لغات قبائل « البانتو » إنما هى ثمرة نوع من المزج بين اللغات السودانية واللغات الحامية ولكنه عارض راينيش فى أن اللغة النوبية لغة حامية وأقره على ذلك العلامة الإيطالى آزيريللى Assirelli ولكنه بعد أن ذكر أن اللغة النوبية تفترق عن اللغة الحامية القديمة وعن لغة « البانتو » لم يستطع إلا أن يقر بأنه رغم هذا كله فإن هناك من أوجه الشبه فى الأفعال وتكوين الكلمات ما يبرر للعلماء أن يقرروا بوجود

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٣

هذه الصلة بين اللغة النوبية واللغة الحامية ولغة « البانتو »[(١)].

وقد آمن المصريون منذ فجر التاريخ بأن وحدتهم مع الشعوب النيلية وحدة تحتمها اعتبارات الجوار والمصلحة المشتركة. ولا داعي فى هذا البحث لسوق العديد من الأدلة التاريخية. ويكفى أن مصر قد اتحدت مع بلادالنوبة فى عصر الأسرة الأولى أى عصر ملوك طيبة عام ٣١٩٧ قبل الميلاد .

وأول حوادث تاريخية تسجل الامتزاج بين المصريين والسودانيين هى علاقات التجارة التى أنشأتها مصر عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد مع دنقلة والبعثة التى أرسلتها مصر إلى دارفور ولم يترك الشعب النيلى الذى كان يقطن السودان فى ذلك الوقت تاريخاً مكتوباً ولكن أهم ما خلفه من أثر وجد فى ناحية فاراس على مقربة من وادى حلفا .

وفى الأسرة الوسطى أى فى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وصل المصريون إلى الشلال الرابع وأنشأوا فى « كرما » مقراً للحاكم لا تزال آثاره باقية إلى الآن . كما أنشأوا على جانبى النيل سلسلة من الحصون لحماية المواصلات مع مصر. وظلت هذه الوحدة قائمة ثلاثمائة عام والأرجح أن انقطاع هذه الصلة مؤقتاً بعد ذلك لم يكن إلا بسبب غزوة الهكسوس لمصر فى عام ١٧٠٠

(١) O. Assirelli : L'Afrique Polyglotte P. 169.

قبل الميلاد لأن المصريين لم يكدوا يتخلصون من حكم الهكسوس فى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد حتى استعادوا امتزاجهم بالسودان فى عهد « احمس » الأول الذى بنى معبد « بوهن » على مقربة من وادى حلفا كما بنيت بعد ذلك عدة معابد بعضها وصل جنوباً إلى جبل بركال[١].

وقد ظلت مصر تحمل رسالة الوحدة بينها وبين الأقاليم الجنوبية فى عهد الدولة القديمة التى انتهت عام ١٤٢٣ قبل الميلاد[٢].

وعلى المعبد الكبير فى الكرنك توجد نقوش تدل على أن بعثات تحوتمس الأول (١٦٦٧ ق.م.) قد وصلت إلى منطقة البحيرات التى ينبع فيها النيل[٣] كما ثبت أن تحتمس الأول أحد ملوك هذه الدولة كان يلقب فى عهد أبيه أمنحتب الأول باسم أمير « كوش » وهى الكلمة المصرية القديمة التى تعبر عن الإقليم الواقع جنوب وادى حلفا .

ومن الثابت تاريخياً أن أول مملكة سودانية قامت فى السودان عام ٧٥٠ ق.م. كانت متأثرة تأثراً قوياً بثقافة مصر

---

(١) تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ ص ٢٦

(٢) حسن كمال « مصر والسودان » وقد ذكر أن أقدم رواية تاريخية عن وحدة مصر والسودان مدونة فى حجر بالرمو

(٣) Chaillé Long: L'Egypte et ses provinces perdues P. 40.

ودينها وأنها اتخذت «نباتة» على مقربة من «مروى» مقراً لها وأن الملك كاشتا والملك بعنخى من ملوك هذه الأسرة وسلالتهم قد حققوا الوحدة مع مصر بل أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين المصرية . فلما غزا الأشوريون مصر عام ٦٦٠ قبل الميلاد انسحب هؤلاء الحكام السودانيون إلى السودان وظلت سلالتهم نحو ألف عام تحكم المنطقة المحيطة بمروى إلى عام ٣٥٠ بعد الميلاد .

وقد عاد المصريون إلى تحقيق وحدتهم مع السودانيين بعد دخول الإسلام إلى مصر فى عام ١٣٤٠ بعد الميلاد إذ أسقطوا المملكة التى كانت قد اعتنقت المسيحية فى شمال السودان واتخذت دنقلة مقراً لها .

وفى عام١٣٨٢ ميلادية أى فى عهد دولة المماليك البحرية رد الظاهر بيبرس الوحدة بين الشعبين النيليين إلى النوبة وسواكن .

وفى القرن الخامس عشر حلت أسرة مالكة إسلامية اتخذت سنار مقراً لها محل الأسرة المالكة السودانية الجنوبية التى كانت لا تزال معتنقة المسيحية وتوطدت أركان الإسلام فى ربوع السودان .

ويجمع الإخصائيون فى علم الأجناس Ethnology على أن

العرب هم الذين أحدثوا أهم إنقلاب « جنسى » فى شعوب أفريقيا وعلى الأخص فى الشعوب النيلية . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعاً راسخاً بنشر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء السودان . كما أن هؤلاء الإخصائيين يقررون أن الجغرافية « الفسيولوجية » لأفريقيا لا تضع عقبات فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إلى آخر وامتزاجها (١) ويقررون أيضاً أن العرب كانوا منذ عصر ما قبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم بادياً فى شمال أفريقيا(٢) وقد ثبتوا أقدامهم على شاطئ أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا إلى « الكونجو » وليس الجنس المعروف باسم « السواحلى » الذى يقطن شاطئ أفريقيا الشرقى من خط الاستواء إلى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجاً من العرب و « البانتو » .

كما أن الامتزاج بين الليبين والزنوج قد أثمر جنساً يدين بالإسلام ويقطن شاطئ أفريقيا الغربى من شمال النيجر إلى حوض النيل . وكما أحدث العرب أهم انقلاب

(١) The Encyclopaedia Britann'ca ص ٣٢٦

(٢) J. Sergi : mediteranean Race

« جنسى » فى شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها . أحدثوا أيضاً أبرز أثر فى تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الإفريقية فى القرن السابع الميلادى وهم مؤمنون بالإسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى .

وفى القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب المسلمين فى أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت فى القرن الحادى عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالإسلام . وامتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا فى شرق أفريقيا . واتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كممباسا وزاولوا التجارة فى الوقت الذى كانت تجهل فيه أوربا كل هذه الأقطار الإفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

وقد تجلى فى العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس فى بث الدعوة للإسلام وحفزتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القارة . وأعانهم استعمال الجمل فى قطع المسافات الطويلة عبر الصحراء فامتد نفوذهم إلى « سينجامبيا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالإسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف

علمى لشاطئ أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة » الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن الإسلامية الزاهرة كممباسا وغيرها[١].

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى — وكانت مصر تتزعم جميع البلاد العربية — طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى Malindi فى شاطىء شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان يخيل إلى الأوربيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطئ ولكن فاسكوده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأوربيين وقد ظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن مضى يذكر على أنه أمهر بحار طاف بسواحل أفريقيا الشرقية بل هناك من يذهب إلى أنه هو الذى اكتشف البوصلة البحرية .

وظل للعرب — حتى بعد أن بدأت أطماع الدول الأوربية الاستعمارية تتطلع إلى أفريقيا — فضل السبق فى اكتشاف

(١) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠ السنة ٤ مجله « المستمع العربى »

مجاهل القارة . فقد أنشأوا مدينة زنزبار فى الجزيرة التى تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم إلى بحيرات شرق أفريقيا وحوض النيل الأعلى .

ولعل أدق وصف لحقيقة الأسباب التى يسرت للعرب المسلمين سبل التسلل إلى مجاهل القارة الإفريقية وعلى الأخص إلى الأقطار الواقعة على جانبى وادى النيل والتى لم يكن قد وصل إليها من قبل أحد قبلهم من غير أهلها النيليين هو ما قرره أحد المستشرقين الثقات فى تاريخ الشرق الأدنى إذ قرر « أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الإسلام وهذه الروح أخذ بها الغرب ودرسها ولكنها غريبة عن طريقة الحياة فى المسيحية . والصلف الجنسى أى الاعتزاز بجنس معين ، كان لا وجود له فى الإسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التى لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوربياً ونجاح الإسلام العظيم فى أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح »[١].

وقد اتخذ الإسلام بعد انتشاره فى السودان مظهراً شكلياً خاصا كاد ينفرد به هذا الجزء من وادى النيل . هو إقبال

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near Past. 46.

النيليين المسلمين من أهل السودان على الانضمام إلى الطرق الصوفية وأقدم هذه الطرق فى السودان هى الطريقة القادرية التى كان قد أسسها السيد محى الدين عبد القادر الكيلانى فى العراق وقد أدخلها إلى السودان فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى تاج الدين البحرى وظلت هى الطريقة الوحيدة هناك إلى أن انقسمت إلى عدة فروع من أهمها الطريقة الأحمدية التى أسسها السيد أحمد البدوى فى طنطا بمصر وقد أدخلت هذه الطريقة إلى السودان عقب وصول المصريين عام ١٨٢١ فى عهد محمد على الكبير إلى شمال السودان وأهم أنصارها فى منطقة وادى حلفا .

وأكبر الطرق الصوفية انتشاراً فى السودان هى الطريقة الختمية التى أسسها السيد محمد عثمان الكبير المولود فى الحجاز عام ١٧٨٧ ومن فروعها الطريقة الإسماعيلية التى أسسها إسماعيل الولى فى الأبيض ويكثر أتباعها فى كردفان

* * *

ويبلغ مجموع عدد النيليين الأفريقيين سكان أوغندة وكينيا وتنجانيقا ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف ، منهم ثلاثة ملايين وتسعمائة وسبعة وسبعين ألفا فى أوغندة وأربعة ملايين

وخمسة وخمسين ألفاً فى كينيا وخمسة ملايين وخمسمائة وثمانين ألفاً فى تنجانيقا .

ويبلغ فريق « البانتو » بين سكان أوغندة نحو مليونين أى نحو ثلثى مجموع عدد السكان وهذا الفريق يقطن الولايتين المعروفتين باسمى « بوغندا » و « بونيورو » أما الثلث الآخر من سكان أوغنده فإنه شعب نيلى بحت أى أنه سلالة القبائل التى هاجرت من السودان وهذا الفريق ينقسم إلى قسمين أحدهما يضم قبائل « أشولى » و « كاكوا » و « كوكو » و « جابودولا » و « شوبى » والآخر يضم قبائل « لوجبارا » و « مادى » وكلها قبائل تعيش تحت نفس الأسماء فى جنوب السودان .

وفى تنجانيقا يسود عنصر « البانتو » ويكون غالبية السكان وهؤلاء « البانتو » فى « تنجانيقا » هم ثمرة امتزاجين « جنسيين » متعاقبين أولهما امتزاج بين الأجناس النيلية السوداء « الزنوج » والأجناس الحامية الأصيلة أى ذات اللون الداكن وهذا الامتزاج أثمر فريق « البانتو » الأصلى الذى وزع على عدة قبائل تسكن ولاية « تابورا » . وثانيهما امتزاج بين هؤلاء وبين القادمين إلى تنجانيقا من الحاميين ذوى اللون الفاتح وقد أثمر هذا الامتزاج مجموعات إنسانية معروفة باسم « البانتـــو » الجدد وهذا

الفريق يسكن المنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة فيكتوريا .

وقد قدمت إلى تنجانيقا هجرات بشرية من قبائل « البانتو » التي كانت مقيمة في « موزامبيق » وكينيا ، وغيرهما وسكنت المناطق التي تقع شرق بحيرة نياسا وعلى شواطئ بحيرة فيكتوريا .

أما العنصر الحامى الشرقي فتمثله قبائل « المازى » التي تقطن على الحدود بين تنجانيقا وكينيا .

وفي كينيا يبدو فريق « البانتو » واضحاً كما بدا في القطرين النيليين الآخرين بل أنه أكثر وضوحاً في هذا القطر إذ يبلغ هذا الفريق ثلثي مجموع السكان وهو موزع على ثلاث قبائل رئيسية أولاها قبيلة « كامبا » ولا يعرف لها أصل أكيد وقبيلة « كافيروندو » التي تضم نحو نصف مليون من المزارعين والرعاة حول بحيرة فيكتوريا . وقبيلة « كيكويو » التي انتقلت منذ أقل من قرن إلى كينيا .ويعيش إلى جانب هذه القبائل الثلاثة قبيلة « ليو » التي يبلغ عددها نحو ستمائة وخمسين ألف نسمة وهي من أصل نيلي بحت .

أما الفريق الحامى في كينيا فتمثله ثلاث قبائل أهمها قبيلة « المازى » وهم من الرعاة الرحل الذين أقبلوا من حوض النيل الأعلى واستقروا أول الأمر في المنطقة المحيطة بجبل « الجون » وبحيرة رودلف وهم في حرب مستمرة منذ أعوام طويلة وصراع

دائم مع القبائل الأخرى .

و « المازى » جنس نيلى حامى ينتمى إلى أصل حامى بحت وهم من نفس جنس الشعوب الحامية التى تسكن الحبشة وشمال أفريقيا ويظن أنهم انتقلوا إلى الجنوب تدريجياً مختلطين فى هجرتهم مع الشعوب النيلية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه الآن أى حتى أصبحوا جنساً حامياً نيليا ، وكانوا فى هجرتهم البطيئة نحو الجنوب ينشدون المراعى فانتهوا إلى سهول كينيا ثم إلى سهول تنجانيقا التى كفتهم لاتساع مساحاتها والتى استطاعوا الاحتفاظ بها كمجالهم الحيوى بفضل نظامهم العسكرى وروحهم الحربية(١).

ويبدو أن الاستعمار البريطانى قد آلى على نفسه مهمة إفناء هذا الفريق من النيليين إذ أنه أرغم « المازى » على ترك السهول التى كانوا يعدونها مجالهم الحيوى فى كينيا وتنجانيقا إلى أرض شاسعه تكاد تكون صحراوية تقع فى جنوب نيروبى وتتجه إلى وديان كلمنجارو .

ويذهب المتوفرون على دراسة القبائل النيلية التى تعيش فى أوغندة وكينيا وتنجانيقا إلى أنه رغم تعدد هذه القبائل فإنها

---

(١) Louis Roux : L'Est Africain Britannique Kenya. Tanganyika Uganda P. 46.

بحكم أصلها النيلى وتوالى التزاوج بين أفرادها كادت تصبح جنساً واحداً فإن قبيلة « الكافيروندو » التى سبق أن ذكرنا إنها إحدى قبائل فريق البانتو تضم فرعاً نيلياً أى من أصل نيلى بحت من الأصل الذى تنتمى إليه قبيلة « ليو » التى سبق أن ذكرنا أنها تجاور قبيلة الكافيروندو. وقبيلة « ليو » بحكم قدومها من النيل الأعلى تتصل بصلات المصاهرة والقرابة بقبيلة « أشولى » التى سبق أن ذكرنا أنها تعيش فى شمال أوغنده وجنوب السودان [1]

ويبلغ عدد العرب المقيمين فى الأقطار النيلية الثلاث أوغندة وكينيا وتنجانيقا وفى ميناء زنزبار على شاطئ أفريقيا الشرقى نحو ستين ألفاً وهم سلالة العرب الذين قدموا من عمان ومسقط واستقروا فى زنزبار وتفرقوا على شاطئ أفريقيا الشرقى بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

ويبلغ عدد الهنود الذين استقروا فى هذه الأقطار النيلية الثلاث بين القرنين السابع عشر والثامن عشر — مائة وتسعة وستين ألفاً موزعين على الوجه الآتى واحد وتسعين ألفاً فى كينيا وأربعة وأربعين ألفاً فى تنجانيقا وأربعة وثلاثين ألفاً فى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠

أوغندة . ويشاهد المسافر فى نيروبى وكامبالا وغيرهما من مدن الأقطار النيلية الثلاث أثر النشاط الهندى فيها فصور الباندبت نهرو والمهاتما غاندى وجنه وأغا خان معلقة فى المتاجر والمحال العامة التى يكاد الهنود يحتكرونها . وفى كل قرية من قرى الأقطار النيلية الثلاث حائك ثياب هندى . وقد احتفظ الهنود بالطابع المعمارى الهندى فى المبانى التى أقاموها . وغالبية المسلمين الهنود الذين هاجروا إلى الأقطار النيلية الثلاث ينتمون إلى الطائفة الأسماعيلية التى يتزعمها أغا خان ويبلغ عددهم ثلث عدد الهنود المقيمين فى هذه الأقطار .

أما المستعمرون الأوربيون البيض — وسنشرح فى الفصل التالى قصة الاستعمار الأوربى فى وادى النيل — فيبلغ عددهم فى الأقطار النيلية الثلاث ثلاثاً وخمسين ألفاً ومائة أوربى منهم تسعة وعشرين ألفاً فى كينيا وستة عشر ألفاً ومائة فى تنجانيقا وسبعة ألاف وستمائة فى أوغندة .

ومن الثابت أن اللغات التى يتحدث بها النيليون المقيمون على شواطئ بحيرة فيكتوريا تتسم بطابع حامى وإن كان المتوفرون على دراسة لغات هذه المنطقة يقسمون هذه اللغات إلى قسمين رئيسيين أولهما اللغات النيلية السودانية التى تتحدث بها قبائل أشولى وما إليها من القبائل التى سبق أن ذكرنا أنها

تعيش فى جنوب السودان وشمال أوغندة وإنها تربطها صلات مصاهرة وقرابة بقبائل ليو التى تعيش فى كينيا وثانيهما اللغات النيلية الحامية التى تتحدث بها قبائل المازى وما إليها ويقرر هؤلاء الباحثون أن هناك حقيقة مادية لغوية تثير الانتباه هى أن هناك لهجة من لهجات لغة « البانتو » تأثرت تأثراً قوياً باللغة العربية هى اللغة « السواحلية » . وهذه اللغة يتحدث بها خمسة عشر مليوناً من الإفريقيين بين شاطئ المحيط الهندى ووسط أفريقيا . وأن هذه اللغة السواحلية هى اللغة التى يتفاهم بها أهل الأقطار النيلية الثلاث . بل إنها اللغة التى يتفاهم بها الأسيويون والأروبيون الذين هاجروا إلى هذه الأقطار .

واللغة السواحلية تدرس فى عدد كبير من المعاهد اللغوية فى أوربا ويذهب نفس الباحثين فى لغات هذه الأقطار النيلية إلى أن اللغة السواحلية — وهى مزيج بين لهجات البانتو المختلفة والعربية — قد تسللت وانتشرت فى داخل أفريقيا بانتشار التجار العرب وأن لغة البانتو هذه قد تغذت بعدد كبير من الكلمات العربية التى فقدت بعض كيانها الأصلى واكتسبت طابعاً جديداً كان ثمرة التأقلم مع اللهجات النيلية وأتاح لهذه اللغة سعة الانتشار .

واللغة السواحلية تدرس رسمياً فى الأقطار النيلية الثلاث

مع أن البعثات الدينية الأوربية المسيحية كانت قد شنت عليها حرباً شعواء عند ما بدأ الاستعمار الأووربى فى وادى النيل(١).

* * *

أما شعب السودان المصرى فيحسن أن نبدأ هنا بالحديث عن فريق هذا الشعب الذى يقطن المديريات الجنوبية الثلاث فى التقسيم الإدارى الجديد وهى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال ومديرية أعالى النيل .. وهى المديريات الواقعة على وجه التقريب جنوب خط عرض ١٠ شمال خط الاستواء .

ومن المعروف أن النيل الذى كان يسمى منذ خروجه من بحيره فيكتوريا إلى بحيرة ألبرت بنيل فيكتوريا والذى سمى بعد ذلك منذ خروجه من بحيرة ألبرت إلى الإبراهيمية « نيمولى » بنيل ألبرت أصبح يسمى منذ مروره بالإبراهيمية — وهى أقصى حدود أوغندة شمالا والسودان جنوباً — ببحر الجبل ويظل محتفظاً بهذه التسمية حتى يتجاوز خط عرض ٩ شمال خط الاستواء حيث يلتقى ببحيرة « نو » وببحر الغزال وهو أحد فروع النيل الغربية فيكتسب اسمه الرابع وهو النيل الأبيض .

وتذهب التقسيمات « الجنسية » لشعب جنوب السودان إلى أن القبائل التى تقطن غرب بحر الجبل وهى قبائل « الازاندى»

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨ ، ٥٩

وعددها مائتان وثلاثون ألفاً و « المورو » و « المـــادى » هى قبائل سودانية والى أن القبائل التى تقيم على ضفتى بحر الجبل وهى قبيلة « الدنكا » وعددها ثمانمائة وعشرون ألفاً و « النوير » وعددها ثلاثمائة وأربعون ألفاً و « الشيلوك » وعددها مائتا ألف هى قبائل نيلية وأن القبائل التى تقطن أقصى جنوب السودان أى الجزء الذى يقع شمال الإبراهيمية « نيمولى » حول « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وهى قبائل «البارى» وعددها مائة ألف و« اللاتوكا » هى قبائل نيلية حامية وقد سبق أن ذكرنا أن هذه القبائل على صلات مصاهرة وقرابة مستمرة بقبائل أوغندة وكينيا وتذهب هذه التقسيمات نفسهـــا إلى أن شعب شمال الســـودان الذى يقطن المديريات الست الشمالية وهى المديرية الشمالية والخرطوم وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور والذى يبلغ عدده نحو خمسة ملايين إنما هو شعب جاء ثمرة الاختلاط بين الحاميين سكان الوادى الأصليين والعرب الذين قدموا من الشمال والذين ظلوا على مدى القرون يعبرون البحر الأحمر فى جماعات صغيرة قادمة من شبه الجزيرة العربية .

وأهم القبائل التى تقطن شمال الســـودان هى قبائل « الهادندوه » و « البشارين » و « بنى عامر » التى تقطن تلال

البحر الأحمر والتى تتحدث العربية بلهجاتها الحامية والنوبيون وهى قبائل شمال السودان تتحدث العربية مطبوعة بطابع من اللغة النوبية القديمة أما وسط السودان فتقطنه قبائل عربية صميمة أهمها « الكواحله » و « الجعليين » و « البقارة » .

ومما لا شك فيه أن جميع شمال السودان يتكلم العربية ويدين بالإسلام .

* * *

أما المصريون فلسنا فى حاجة إلى أن نذكر فى هذا البحث الموجز أكثر من الحقيقة العلمية الثابتة وهى أنهم شعب من أصل حامى امتزج بالعرب الساميين الذين توالت هجراتهم على مصر على مدى القرون .

الاستعمار فى وادى النيل

مما يثير الانتباه أن أول محاولة بريطانية لاغتصاب أرض فى أفريقيا كانت المحاولة التى قامت بها بريطانيا فى شمال وادى النيل سنة ١٨٠٧ فى عهد محمد على الكبير فقد حاولت بريطانيا غزو مصر فاتفقت مع محمد الألفى أحد زعماء المماليك الناقمين على نظام الحكم الذى وضعه مؤسس الأسرة المالكة المصرية ونزلت الجيوش البريطانية فى الإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر ثم زحفت إلى رشيد وكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكى وأسرع محمد على فأرسل إليه وإلى غيره من حكام الموانىء المصرية يعرض استعداده لإرسال المدد ولكن أهالى رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم على صد الغزاة وقد تغلبوا فعلاً على الجيش البريطانى الزاحف فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ وكان ذلك النصر المصرى إيذاناً بفشل الحملة البريطانية .

وعاد البريطانيون يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم فى الحماد يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ وكان البريطانيون

بقيادة الجنرال ستيوارت ولكن المصريين تغلبوا فى الحماد كما تغلبوا فى رشيد واضطر البريطانيون إلى توقيع الاتفاق الذى تم بين الجنرال شيربروك وبين محمد على بدمنهور فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذى تعهد فيه بالجلاء عن مصر.

وقد عمدت بريطانيا بعد أن فشلت محاولاتها فى وادي النيل إلى ضم مستعمرة الكاب إليها فى سنة ١٨١٦ وظلت تتربص فى أقصى جنوب أفريقيا أول فرصة لكى تحقق حلمها الاستعمارى القديم فى شمال القارة وبالذات فى وادي النيل . وكانت مصر بعد تولى محمد على الكبير الحكم قد بدأت جهوداً عصرية جبارة لإدخال الحضارة إلى السودان وللوصول إلى منابع النيل وكشف هذه المنابع — التى كانت إلى ذلك العهد مجهولة — للعالم المتحضر .

ولا يتسع هذا البحث للإفاضة فى جهود مصر الحديثة لتحقيق وحدتها مع أقاليم النيل الجنوبية فمن الثابت أن المصريين وصلوا إلى بربر على بعد ألف وخمسمائة وواحد وثمانين ميلا من القاهرة وهى التى تقع على خط عرض ١٨ شمالا فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ . وإلى سنار على بعد ١٥٩٤ ميلا من القاهرة التى تقع على خط عرض ١٣ شمالا فى ١٢ يونيو من نفس السنة . وتولى محمد بك الدفتردار صهر محمد

على باشا مهمة الوصول إلى أقاليم غرب النيل الأبيض فوصل إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان الحالية التى تقع على خط عرض ١٣ شمالا وتوغل فى مديرية دارفور فى شهر إبريل من نفس السنة. كما أن الأمير إسماعيل بن محمد على تولى مهمة الوصول إلى فازوغلى فى يناير سنة ١٨٢٢ . ومن الثابت أن المصريين هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم وأصبحت عاصمة السودان باتخاذ خورشيد باشا لها عاصمة للحكم.

وهنا يقر إميل لودفيج فى كتابه «النيل» .

« لقد تبين أمير مصرى – محمد على – ما لنقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق من أهمية حيوية فى تاريخ العالم فأسماها الخرطوم . . . . حيث لا يسع الفكر إلا أن يتوقف حتى إذا لم تكن هناك مدينة قائمة . حيث يتعانق النيلان كشقيقين » .

ومما يستحق الذكر هنا أن مؤرخاً أمريكياً قد اشترك مع المصريين فى محاولة مسايرتهم للنيل من منبعه إلى مصبه فى تلك الفترة من تاريخ مصر وهذا المؤرخ هو جورج بثيوم انجليش George Bethume English وقد أصدر كتاباً عن هذه الرحلة أسماه «حملة دنقلة وسنار تحت قيادة صاحب السمو إسماعيل باشا وبناء على أمر صاحب العظمة

محمد على باشا نائب الملك فى مصر بقلم أمريكى فى خدمة نائب الملك » .

A Narrative of the expedition to Dongola and Sennar under the command of his Excellency Ismail Pacha undertaken by order of his Highness Mohamed Ali Pacha Viceroy of Egypt, by an American in the service of the Viceroy.

وقد أسلم هذا المؤرخ الأمريكى قبل سفر الحملة إلى أعالى النيل وأطلق على نفسه اسم محمد افندى ويرجح المستشرق الأمريكى بيير كرابيتيس Piere Crabites القاضى السابق للمحاكم المختلطة فى كتابه «أمريكيون فى الجيش المصرى» أنه لم يكن الأمريكى الوحيد الذى صحب المصريين إلى أعالى النيل فى سنة ١٨٢٠ إذ أن اثنين من علماء الانجليز هما وادنجتون Waddington وهانبرج Hanburg قد أشارا فى كتاب لهما صدر هو الآخر عام ١٨٢٢ وأسمياه « يوميات زيارة إلى بعض جهات الحبشة » إلى محمد أفندى وإلى أمريكى آخر صحب الحملة المصرية معه .

كما أن انجليش فى كتابه المشار إليه سابقاً قد ذكر اسم أمريكى آخر كان، زميلا له فى تلك الحملة المصرية وهو « خليل أغا » ذكر عنه أنه رجاه أن يحصل من الأمير إسماعيل

على إذن بمصاحبة الحملة وأنه ربما كان أول شخص قطع المسافة بين رشيد وسنار بواسطة النيل أى بواسطة البواخر المصرية التى عملت فى خدمة هذه الحملة .

ولم يستطع الاستعمار البريطانى عند ما اغتصب السودان فيما بعد أن ينكر جهود مصر فى هذا السبيل فأقام نصباً تذكارياً فى الميدان الرئيسى بمدينة « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية التى تقع على بعد ٤٧٨٧ كيلو متراً من القاهرة حفرت عليه التواريخ والأسماء التالية .

١٨٤٠ — ١٨٤١ — سليمان كاشف — سليم قبطان . وهذان العالمان أرسلهما المغفور له محمد على الكبير مؤسس الأسرة المالكة المصرية فى التاريخ المحفور على الحجر لمحاولة الوصول إلى منابع النيل قبل أن تفكر أية دولة أوربية فى محاولة كشف هذه المنابع . وسجلت المراجع العلمية أن ثانيهما سليم قبطان وضع أول رسالة علمية عن أواسط أفريقيا نشرتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية فى سنة ١٨٤٢ ووصفت رحلة هذا المصرى بأنها إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر قبل ذلك بربع قرن أى بتأسيس الأسرة العلوية الكريمة .

وقرأت فى نفس التاريخ اسمى تيبو Thibault وارنو Arnand ثم اسمى Werne وسابتيه Sabatier والأولان

فرنسيان والثالث ألمانى والرابع فرنسى وجميعهم أرسلهم المغفور له محمد على فى ذلك التاريخ بقيادة سليم قبطان وسليمان كاشف منذ قرن واحد وبضعة أعوام لاكتشاف مجرى النيل فاكتشفوا فتحة نهر السوباط على بعد ١٨٨١ ميلا من القاهرة واخترقوا بحيرة نو على بعد ١٩٦٧ ميلا من القاهرة ثم اكتشفوا فتحة بحر الغزال أى التقاء هذا النهر ببحر الجبل عند بحيرة نو وبلغوا يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ خط عرض ٥ عند غندوكرو الواقعة على بعد ٢٤٤٠ ميلا من القاهرة والتى سنرى فيما بعد أنها أصبحت تسمى «الاسماعيليه» فى عهد الخديوى اسماعيل تيمناً باسمه عند إنشاء المديرية الاستوائية المصرية .

وكانت الأوساط الأوربية الجغرافية قد تنبهت إلى جهود مصر ومحاولاتها كشف منابع النيل فأوفدت الجمعية الجغرافية بلندن الرحالتين بيرتون Burton وسبيك Speke عام ١٨٥٦ للبحث عن هذه المنابع فاكتشف بيرتون بحيرة تنجانيقا وأصدر كتاباً عن رحلته أسماه مناطق البحيرات فى أفريقيا الوسطى The Lake Regions of Central Africa وفى عام ١٨٥٨ اكتشف سبيك بحيرة أوكيرو وأسماها فيكتوريا وعدها منبع النيل ولكن زميله بيرتون لم يقره على ذلك وعاد

إلى منطقة منابع النيل مع الرحالة جرانت عام ١٨٦٠ عن طريق زنزبار أى شاطئ أفريقيا الشرقى لتكملة كشف منطقة منابع النيل فجابا شواطئ بحيرة فيكتوريا وكان قد سافر صمويل بيكر عن طريق النيل محاولا الوصول إلى منطقة المنابع فوصل يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٦٢ إلى غندكرو وهى أقصى نقطة كانت قد وصلت إليها بعثة سليم قبطان وسليمان كاشف كما سبقت الإشارة إلى ذلك وهناك التقى بيكر بالرحالتين سبيك وجرانت وعلم منهما بأنهما لم يتمكنا من إتمام كشف منابع النيل وأن جزءاً مهماً من مجراه لا يزال غامض المعالم وأن أهالى تلك المنطقة أخبروهما أن النيل يصب بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا فى بحيرة كبيرة يسمونها « موتا نزيجة » وأن النيل يدخلها ثم يخرج منها .

وفى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وصل بيكر إلى شاطئ البحيرة التى يصب فيها النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا أى البحيرة التى كان قد عجز الرحالتان سبيك وجرانت عن كشفها .

ولما تولى المغفور له الخديوى إسماعيل حكم مصر تابع ما كان قد بدأه المغفور له محمد على الكبير فأعاد إيفاد صمويل بيكر باسم مصر لكشف منابع النيل .

وفى أول إبريل سنة ١٨٦٩ أصدر المغفور له

إسماعيل باشا أمراً خديوياً عهد به إلى بيكر :

ا ــ إخضاع البلادالواقعة جنوب غندوكرو «الاسماعيلية» .

ب ــ القضاء على النخاسة .

ج ــ إدخال نظام تجارى فى هذه المناطق .

د ــ فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة .

هـ ــ إنشاء سلسلة من الحصون فى أواسط أفريقيا

وفى ٢٣ إبريل سنة ١٨٧٠ أنشئت « التوفيقية » على بعد ١٨٧٥ ميلا من القاهرة وعلى مقربة من التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق وذلك تيمناً باسم ابن عاهل مصر إذ ذاك .

وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندكرو وسميت الإسماعيلية تيمناً باسم عاهل مصر إذ ذاك واتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية .

وفى ٢ مارس سنة ١٨٧٢ أنشئت « الابراهيمية » واسمها الحالى نيمولى وهى أقصى نقطة على حدود السودان جنوباً وأقصى نقطة على حدود أوغندة الحالية شمالا وعلى بعد ٢٥٥١ ميلا من القاهرة تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك .

وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ وصلت الحملة المصرية إلى ماسندى عاصمة ولاية أونيورو وضمت الولاية إلى مصر .

وقد أرسل بيكر إلى إسماعيل خطاباً ذكر فيه أن حدود

مصر قد أصبحت ممتدة إلى خط الاستواء ثم عاد فأرسل بأن العلم المصرى قد رفع على بعد درجة جنوب خط الاستواء وأن ملك أوغندة قد اعتنق الدين الإسلامى وأنه بنى جامعاً فى عاصمته ولهذه المراسلات ملف فى محفوظات سراى عابدين العامرة رقمه ٧٢ — ١ .

ومما يجب ذكره هنا أن حملة صمويل بيكر كان قوامها ضباط مصريون منهم الأميرالاى رؤوف بك الذى عين فيما بعد حاكماً عاماً للسودان والبكباشى أحمد رفيق الذى استشهد أثناء الحملة وعبد القادر أفندى الذى قتل فيما بعد أثناء الثورة العرابية والطيب أفندي عبد الله السودانى الذى تولى قيادة الأورطة السودانية. وقد استخدمت الحملة فى تنقلاتها الباخرتين المصريتين الإسماعيلية ونيانزا .

وإلى ذلك الوقت أى إلى عام ١٨٧٤ وعلى وجه التحديد ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ كانت مصر والسودان تبدوان فى الأسرة الدولية كوحدة سياسية مستقلة وإن كانت سيادة الباب العالى النظرية المستندة إلى معاهدة لندن التى وقعت فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ لا تزال آثارها باقية .

ولم تكن الدول الأوربية قد بدأت ترنو إلى الانتقاص من هذه الوحدة أو تعكير صفوها. ولو أن إنجلترا كانت

قد وضعت قدمها فى القارة الإفريقية باحتلالها مستعمرة الكاب إلا أن اهتمام إنجلترا بالتوسع الاستعمارى ضعف عام ١٨٥٤ بإعلان الاستقلال لبوير نهر الأورانج وكاد هذا الاهتمام ينعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالإجماع على تقرير اللجنة التى انتدبها لبحث شئون أفريقيا فقد نص فى هذا التقرير على أن كل توسع فى الحصول على أرض أو تولى السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل الوطنية يجب أن يقف كل إجراء بشأنه

All further extention of territory or assumption of government, or new treaty offering any protection to natives tribes, would beinexpedient.*

ولكن العقلية الاستعمارية لم تلبث أن استردت نفوذها فى توجيه السياسة البريطانية الخارجية ولعل أصدق تعبير عن هذه العقلية هو ما ذكره السياسى البريطانى سيسل رودس — الذى سميت مستعمرة رودس باسمه — فى مذكراته إذ قرر « إذا كان هناك إله فإن ما يجب أن يطلبه منى هو أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة أفريقيا باللون الأحمر البريطانى ! » .

وقد ذكر أميل لودفيج أن رودس كان يعلق فى منزله

(١) The Ereyclopoedia Britannica : Africa

خريطة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصرى وأسفلهما فيه رمز جنوب أفريقيا أى Springbok وبين الاثنين العلم البريطانى وهو يشير بذلك إلى وصل شمال أفريقيا بجنوبها بسكة حديدية تمر فى أراض بريطانية وكان يرى أن إنشاء هذه السكة يحقق حلم بريطانيا فى السيادة على أفريقيا من الشمال إلى الجنوب (١).

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ أصدر الخديوى إسماعيل أمراً خديوياً بتعيين جوردون حاكماً للمديرية الاستوائية وفى اليوم التالى ألحق بحملته الضابط الأمريكى شيليه لونج Chaille Long والفرنسى أوجست لينان ده بلفون August Linant de Bellefond والإيطالى روهولوجيسى Romulo Gessi وكانت الشائعات قد ذاعت , فى الأوساط الجغرافية الأوربية عن فقد الرحالة الانجليزى ليفينجستون Levingstone فأوفد الصحفى الأمريكى هنرى ستانلى إلى منطقة منابع النيل للبحث عنه والتقى به عند شاطىء بحيرة تنجانيقا وشرح ستانلى فى كتابه « كيف وجدت لفنجستون ؟ » آراء هذا الرحالة الإنجليزى الذى كان قد توفر على دراسة أوبئة المناطق الحارة.

وأوجس الخديوى إسماعيل خيفة من رحلة ستانلى فكلف

---

(١) Emile Ludwing. Gerius and Charater P. 89. 92

الضابط الأمريكى لونج الذى ألحق بحملة جوردون أن يسبق حملة لندن وأن يبرم معاهدة مع ملك أوغندة . ومما يسجل هذا الحذر ما ذكره الكولونيل شيليه لونج فى الكتاب الذى أسماه « حياتى فى أربع قارات » فقد قرر « لدى دخولى كان الخديوى إسماعيل يمشى بخطى واسعة وهو متوتر الأعصـــاب فوجه إلى السؤال الآتى : أرأيت الجنرال جوردون ؟ فأجبت نعم يا مولاى ولقد قضيت معه أكثر الليل — فقال إذن أعرنى سمعك . لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها المحافظة على المصالح المصرية وفى لندن يوشكون أن ينظموا حملة بقيادة رجل أمريكى يدعى ستانلى والغرض الظاهر من هذه الحملة نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقى فهو رفع العلم البريطانى على أوغندة فاسبق حملة لندن وأبرم معاهدة مع ملك أوغندة فتصبح مصر مدينة لك بواجب الشكر اذهب وليكلل الله مسعاك بالنجاح » .

ونفذ لونج أمر إسماعيل فصحب اثنين من الجنود السودانيين الذين كانوا قد حاربوا فى المكسيك باسم مصر ووصل فى ٦ مايو سنة ١٨٧٤ إلى فاتيكو جنوب خط عرض ٣ فى حدود أوغندة الحالية التى كان يتولى قيادتها منذ حملة بيكر

الصاغ عبد الله الدنساوى أحد الضباط السودانيين الذين سبق أن حاربوا فى المكسيك ثم .وصل إلى عاصمة أوغندة فى ٢١ يونيو ١٨٧٤ وعقد مع ملك أوغندة معاهدة اعترف فيها بحماية مصر لأقليمه ورفع لونج تقريراً فى هذا الشأن إلى الحكومة المصرية .

وفى ١٦ ديسمبر ١٨٧٤ اتخذت مصر هذه المعاهدة أساساً للمذكرة الرسمية التى أبلغتها إلى الدول والتى أعلنت فيها ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فيكتوريا وألبرت إلى مصر وهذا هو نص المذكرة نقلا عن كتاب مصر وأقاليمها المفقودة L'Egypte et ses Provinces Perdues الذى وضعه لونج :

« اتضح من آخر الأنباء التى وصلت إلى القاهرة أن جوردون باشا قد نفذ إلى إقليم مرولى على ضفتى نهر سومرست — ويقصد الجزء من النيل الذى يصل بين بحيرتى فيكتوريا والبرت والذى يسمى عادة نيل فيكتوريا — وقد أرسل جوردون باشا القوات الضرورية لإنشاء مركز حربى فى اوروندجانى ولإنشاء مركز آخر على ضفة بحيرة فيكتوريا .على مقربة من شلالات ريبون وبناء على ما ورد من الأنباء الأخيرة احتل جوردون مركز ماجونجو على شاطئ بحيرة ألبرت عند فتحة

نهر سومرت وبذلك وصل ماجونجو بمحطة دوفيليه الواقعة على النيل الأبيض فوق فتحة نهر اسوا كما تم ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فيكتوريا وألبرت مع كل فروع اليل التى تصب فيهما إلى مصر .

إننا سعداء إذ نعلن نتيجة أعمال هذه البعثة التى وفقت إلى تحقيق الهدف الذى حدده الخديوى إسماعيل وهو نشر الحضارة والزراعة والتجارة فى هذه الأقاليم . »

وكان من ثمرات بعثة لونج باسم مصر إلى أوغندة عام ١٨٧٤ اكتشاف بحيرة كيوجا التى أطلق عليها لونج اسم إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك . وقد تحقق بهذا الكشف بصفة قاطعة أن فرع النيل — نيل فيكتوريا الذى لاحظ سبيك عند اكتشافه بحيرة فيكتوريا عام ١٨٥٨ قبل ذلك بأربعة عشر عاماً أنه يخرج من هذه البحيرة — تحقق لونج أنه هو نفسه الذى يصب فى بحيرة ألبرت بعد مروره ببحيرة إبراهيم التى كان يطلق عليها أهالى تلك المنطقة اسم بحيرة كيوجا كما أشارت إلى ذلك مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية فيما بعد بعدد يونيو منه ١٨٨٥ .

ووصلت البعثة الإنجليزية التى أوجس الخديوى إسماعيل منها شراً إلى البحيرات الكبرى فى ١٥ إبريل عام ١٨٧٥

قادمة من شاطئ القارة الشرقى وكان يرأسها ستانلى مراسل صحيفة « نيويورك هيرالد » الذى – كما يقرر شيليه لونج – « كان من المؤكد أنه يحمل العلم البريطانى فى جيبه وهو على أهبة رفعه . ولكن جوردون كان قد أرسل إلى بلاط الملك متيسا عقب توقيع المعاهدة التى قبل فيها حماية مصر فرنسياً من موظفى الحكومة المصرية هو أرنست لينان ده سبلفون Ernest linant de Bellefonds وبذلك كان العلم المصرى محمياً حماية تامة » .

وقد قرر كيث جونسون Keith Johnson فى كتابه « أفريقيا » أن لونج قد سد فى علم الجغرافية النقص الذى كان يشوب معرفة العالم بمجرى النيل وزال كل شك فى أن هذا الفرع الذى اكتشفه لونج باسم مصر هو فرع النيل الرئيسى .

وفى خلال الشهور التسعة التى حكم جوردون أثناءها المديرية الاستوائية باسم مصر عام ١٨٧٤ أنشئت محطة عند مصب نهر السوباط على بعد ١٨٨١ ميلا من القاهرة وأنشئت محطة شامبى على بعد ٢٠١١ ميلا من القاهرة. ووصلت الباخرة المصرية « بردين » إلى الاسماعيلية على بعد ٢٤٤٠ ميلا من القاهرة ونقلت العاصمة الاستوائية من

الإسماعيلية إلى « لادو » .

وكان من ثمرات هذه البعثة المصرية رسم خريطة للنيل الأبيض من « الرجاف» على بعد ٢٤٥٤ ميلا من القاهرة إلى الخرطوم على بعد ١٣٥٦ ميلا من القاهرة .

وفى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٥ وصل شيليه لونج مع ٧٠٠ جندى مصرى وسودانى إلى مكراكا غرب النيل الأبيض وإلى نهر « يى » الذى يمر بأراضى الكونجو البلجيكى حالياً وجنوب غرب السودان .

وفى ١٢ إبريل سنة ١٨٧٥ وصل « أرنست لينانت ده بلفون» إلى قصر ملك أوغندة موفداً من قبل مصر فوجد هنرى ستانلى لديه وقد رأينا أن « لونج » كان قد سبقه فى الوصول إلى ذلك المقر يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ .

وفى ٢١ إبريل سنة ١٨٧٦ انتهى « جيسى» من قطع بحيرة البرت بالباخرة فكانت هذه الباخرة المصرية أول باخرة مخرت مياه البحيرة .

وفى ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٦ وصل أمين — وهو الاسم الذى أطلق على الدكتور ادوار شنتزر Eduard Schnitzer النمسوى بعد إسلامه والتحاقه بخدمة الحكومة المصرية — إلى عاصمة أوغندة فوجد أن حملة مصرية بقيادة الضابط نور محمد

احتلت العاصمة .

ويبدو أن جوردون لم يكن ينوى ضم أوغنده إلى مصر فقد اعترف أن الملك متيسا ملك أوغنده قد أقسم يمين الولاء لمصر فى عـــام ١٨٧٦ ورغم ذلك فإن جوردون كان يرمى إلى ترك ذلك الملك مستقلا وإلى قصر إقامة القوات المصريه فى أوروندجانى ولكن الملك متيسا نفسه هو الذى دعاها إلى عاصمته دوبابجا(١)

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ أرسلت مصر ١٦٠ جندياً إلى عاصمة أوغندة بناء على طلب ملكها .

وفى ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ وصل جوردون إلى شلالات مورشيزون عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت .

وفى العدد رقم ٦٧٤ الصادر بتاريخ سبتمبر سنة ١٨٧٦ من الوقائع المصرية برقية وردت إلى الحكومة من جوردون : تنبىء بأن ملك أوغندة قد طلب جنوداً مصريين لمساعدته فى إقامة عاصمة لملكه وقد وصف جوردون فيها عدة جهات سجل أنها أصبحت مصرية .

وفى ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل الأميرالاى Prout الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية إلى « فاتيكو » و «مرولى » بين بحيرتى إبراهيم وألبرت الواقعتين الآن فى حدود أوغندة

(١) « رسائل جوردون إلى أخته » ص ١٧٦

و إلى « ماجونجو » على بحيرة ألبرت التى رأينا أنها ضمت إلى مصر بمقتضى المعاهدة التى بلغت للدول فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل ذلك بعامين .

وفى يونيو سنة ١٨٧٧ أتم الضابط « ميسون » الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية رحلة بباخرة مصرية فى بحيرة ألبرت من « ماجونجو » وطاف الشاطىء الغربى للبحيرة فكانت ثانى رحلة تنظمها مصر فى هذه البحيرة بعد رحلة « جيسى » فى العام السابق .

وكان قد بدا فى السياسة البريطانية الخارجية اتجاه إلى التوسع الاستعمارى فى أفريقيا وظهر لهذا الاتجاه صدى فى تصرفات « تشارلز جوردون » الذى وإن كان يمثل الحكومة المصرية فى المديرية الاستوائية إلا أنه لم ينس قط جنسيته البريطانية فقد أمر فى أواخر عام ١٨٧٦ أى قبل تركه خدمة الحكومة المصرية لانتهاء عقد خدمته بسحب القوات المصرية من « أونيورو » و « أوغندا » وكان الخديو قد أنعم عليه بالوسام المجيدى الأول ولم يصله خبر الإنعام إلا بعد أن صدر منه أمر سحب تلك القوات فاعترف بأنه ارتبك ولم يعد يدرى ما ذا يفعل إزاء هذا الموقف .

ورغم الأمر الذى أصدره تشارلز جوردون ظلت الوحدة

بين مصر والأقاليم الجنوبية أى بين شعب وادى النيل فى الشمال والجنوب قائمة محترمة فى الأسرة الدولية .

ولم يكن إيمان الخديو إسماعيل بتحقيق هذه الوحدة مجرد متابعة لسياسة مصر التقليدية وعلى الأخص لسياسة جده مؤسس الأسرة المالكة المصرية وإنما كان قد جد عامل دولى زاد اقتناع إسماعيل بهذه الوحدة ودعم — من الوجه الدولية — جهوده لتحقيقه .

فغير خاف أن إسماعيل كان متأثراً لحد كبير بالثقافة الإيطالية وبالفنون الإيطالية وقد ظهر فى عام ١٨٥١ مذهب فى القانون الدولى العام دعا إليه الأستاذ بسكال منشينى فى المحاضرات التى ألقاها على طلبته بجامعة تورين وهذا المذهب يرمى إلى إعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق فى أن تتحد لتصبح دولة وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان. وكانت هذه النظرية من أهم المبررات التى استند إليها جريبالدى فى توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا(١).

وكانت بعض شعوب أوروبا فى ذلك العهد ترزح تحت نير استبداد الدول العظمى التى تفرض جنسيتها وسيادتها

(١) Mancini : La vie des peuples dans l'humanité

على تلك الشعوب التى كانت تختلف عنها جنساً ولغة وديناً فآمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران Laurent الذى قرر أن الأمم من عند الله LesNations sont de Dieu فلا يملك الإنسان أن يتحكم فى مصيرها وبشر بهذا المذهب فى المحاضرات التى ألقاها بجامعة جاند (١) وضمنها كتابه « دراسات عن تاريخ الإنسانية » وقد توفى عام ١٨٨٧ أى أنه عاصر حكم إسماعيل .

وبذلك ظلت الوحدة بين مصر وأقاليمها الجنوبية متحققة محترمة فى الأسرة الدولية تدعمها النظريات التى استجدت فى محيط القانون الدولى العام . ومما يقطع بأن العلاقة بين مصر وأقاليمها الجنوبية إنما كانت علاقة وحدة تتساوى فى نطاقها حقوق المواطنين لا علاقة دولة سيدة باقليم تابع أو بمستعمرة أن الحكومة المصرية التى كان يرأسها شريف باشا قد قدمت إلى مجلس شورى النواب بجلسة انعقدت يوم ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ اللائحة الأساسية أى الدستور وقد نصت المادة ٣٤ من هذا الدستور على أن « أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائباً بما فيهم نواب السودان » ونصت المادة الثامنة على أن كل « نائب يعتبر وكيلا عن عموم الأمة المصرية

(١) Laurent : Etudes sur l'histoire de l'humanité

وليس فقط عن الجهة التى انتخبته »(١) كما أن لائحة الانتخاب التى قدمت إلى مجلس شورى النواب بجلسته التى انعقدت يوم ٢ يونيو سنة ١٨٧٩ قد نصت المادة ٣٥ منها على انتخاب ستة عشر نائباً عن السودان . ولكن الدول الأوربية هالتها هذه الروح الديمقراطية التى بشرت بها مصر قبل أن تخطر لدولة من دول الغرب فأسرعت بالإجهاز على عهد إسماعيل وتولى الخديو توفيق حكم مصر فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وتابعت مصر نفس السياسة فاستصدرت وزارة محمد شريف باشا من الخديو الجديد دستوراً جديداً فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ . ثم استصدرت قانون انتخاب نصت المادة ١٢ منه على انتخاب اثنى عشر نائباً عن أقاليم السودان .

وفى أغسطس سنة ١٨٨١ كان قد بدأ محمد أحمد المهدى يدعو فى جزيرة أبا على مقربة من دنقلة إلى مذهبه الدينى فانتشرت هذه الدعوة وأيده فيها عبد الله التعايشى فى الوقت الذى كان فيه رءوف باشا حاكماً عاماً على السودان من قبل مصر . فلما شعر رءوف باشا بخطر الدعوة التى كان يروجها محمد أحمد المهدى أرسل يستدعيه إلى الخرطوم فرفض وبدأت حركة العصيان المهدية تتخذ شكلا سياسياً ثورياً

---

(١) جريدة الأهرام عدد ١٢ يونيو عام ١٨٧٩

شمل أجزاء عديدة من الأقاليم الجنوبية واستولى الثوار على الجزء الجنوبي من كردفان . وفى نفس الوقت قامت فى مصر ثورة أحمد عرابى باشا وأقبلت البوارج الإنجليزية إلى الإسكندرية فضربتها فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم نزلت إلى المدينة بحجة حماية الخديو من العرابيين ودخلت إلى القاهرة ثم تم تسليم العرابيين فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٢ بالاستيلاء على القلاع المصرية من الإسكندرية إلى الجميل بين دمياط وبورسعيد . وانصرفت مصر بطبيعة الحال إلى أحداث الثورة العرابية فساعد هذا على انتشار الدعوة المهدية فى الأقاليم الجنوبية وعلى زيادة نفوذ زعيم هذه الدعوة محمد أحمد المهدى .

وتطورت السياسة الإنجليزية بالنسبة لأفريقيا تطوراً كبيراً وأسفرت عن سياسة تدخل صريحة. وقد عزل رءوف باشا من منصب حاكم عام السودان وولى مكانه عبد القادر حلمى باشا فأرسل فى طلب خمسة عشر ألفاً من الجنود المصريين ليقضى على الثورة المهدية ولكن الإنجليز الذين كانوا قد بدأوا يتحكمون فى أقدار الجيش المصرى بتعيين سير إيفلين وود أول سردار إنجليزى له رفضوا طلب عبدالقادر باشا حلمى ثم أقصوه من منصبه وعين الجنرال هيكس Hicks قائداً للقوات المصرية فى السودان وهو ضابط متقاعد من

القوات الهندية وجمعت له فلول الجيش العرابى الذى كان قد قاوم القوات البريطانية قبل ذلك ببضعة شهور ولم يزل بعد من نفوس ضباطه شعور الحقد والكراهية لها. وأرغم هؤلاء الضباط المصريون على العمل تحت رئاسة ضابط بريطانى أثبت جهله المطبق منذ بدء الحملة يساعده رئيس أركان حرب إنجليزى هو الكولونيل فاركوهار Farkuhar لا يقل عنه جهلا . ولما نكبت حملة « هيكس » وفنى الجيش المصرى الذى قاده وكان عدده ١٢,٩٠٠ اثنى عشر ألفاً وتسعمائة جندى فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ وجهت الحكومة الانجليزية « نصيحة » إلى الحكومة المصرية بوجوب إخلاء السودان فرفض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية . وعندئذ اضطر لورد جرانفل الوزير الإنجليزى إلى أن يشرح معنى كلمة « النصيحة » إذا صدرت من وزير إنجليزى إلى وزير مصرى. وهنا يقرر مستر ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » بصراحة بعد أن وضع كلمة « نصيحة» بين قوسين(١) :

« أن الخديو انحنى أمام القوة التى تفوق سلطته واستقال

---

(١) Winston Churchill : The River War P. 37.

والنص الانجليزى لعبارة تشرشل هو

Th. Khediver bowed to superior authority.
The Ministe resigned. The Palicy of evacuation was firmly adopted.

الوزير ونفذت سياسة إخلاء السودان تنفيذاً حاسماً » .

ولكن شريف باشا قد سجل فى كتاب استقالته الذى أذاعه « إن الحكومة البريطانية تحتم علينا إخلاء السودان مع أن قبول هذا الإخلاء ليس من حقنا لأن هذا البلد هو من ممتلكات الباب العالى وقد سلمنا حراسته . تقول حكومة الملكة إن من واجبات مصر الإذعان لمشورتها بدون مناقشة وهذا تعد صارخ على فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ القاضى بأن الخديو يحكم مع وزرائه وبواسطتهم وقد استقلنا لأنه حجر علينا أن ندير الأحكام بمقتضى هذا الدستور »

وكان لا بد لتنفيذ سياسة إخلاء السودان من إرسال حملة لإعادة القوات المصرية إلى مصر فأرسلت الحكومة الإنجليزية تسأل الحكومة المصرية عما إذا كانت توافق على أن يتولى الجنرال تشارلز جوردون — الذى بدأ خدمته للحكومة المصرية فى السودان أثناء عهد إسماعيل والذى رأينا أنه لم يكن أميناً فى أداء واجبه كموظف مصرى للأوامر التى أصدرها بإخلاء مديرية خط الاستواء من القوات المصرية بدون أن يتلقى تعليمات بذلك من الدولة التى كان يعمل باسمها وهى مصر — فأجابت الحكومة المصرية بواسطة سير إيفلين بيرنج Evelyn Baring بأن الحركة التى قامت فى السودان إنما

كانت لواعز ديني ولذلك فإن مصر تعارض فى تعيين مسيحى فى مركز القيادة العليا للحملة التى كان مزمعاً إرسالها . وأرسل سير إيفلين بيرنج ممثل بريطانيا فى مصر رسالة فى ٩ ديسمبر عام ١٨٨٣ إلى حكومته قرر فيها « مهما كانت أخطاء الزبير باشا فإنه رجل عرف عنه النشاط العظيم والعزم ، والحكومة المصرية ترى أن خدماته قد تعود بأكبر المنفعة كما أن بيكر باشا توافق إلى أن يمكّن من الاستفادة بخدمات الزبير باشا» .

وبذلك أصبح من الواضح أن المصريين حتى بعد الاحتـــلال الإنجليزى كانوا يعارضون معارضة شديدة فى أن يتولى بريطانى حملة إخلاء السودان وكانوا يرشحون سودانياً هو الزبير باشا من المؤمنين بفكرة الوحدة لأداء هذه المهمة وكان يؤيدهم فى هذا الاتجاه نفس ممثل بريطانيا فى مصر سير ايفلين بيرنج إلا أن الحكومة البريطانية أصرت على وجوب تعيين الجنرال جوردون فى المنصب المقترح .

ولما وصل جوردون إلى مصر ذهب لزيارة شريف باشا وزير مصر الأول الذى كان قد استقال احتجاجاً على موقف الإنجليز من السودان والتقى فى هذا المنزل بالرجل الذى كان قد اعتزم أن يتلاقى لقاءه وهو الزبير فتحدثا عن السودان ولم يكد ينتهى هذا الحديث حتى أسرع نفس جوردون إلى الوكالة

البريطانية وأنبأ سير إيفلين بيرنج بأن الزبير يجب أن يصحبه توا إلى الخرطوم ثم عاد عقب وصوله إلى الخرطوم فأرسل برقية إلى القاهرة يرجو فيها رسمياً إرسال الزبير باشا .

هذه الحقائق التاريخية ليست وحدها الدليل الذى يقطع بأن إنجلترا ما كانت ترى حتى ذلك الوقت أن لها أملا فى تثبيت قدمها فى أقاليم مصر الجنوبية أو حقا أو شبه حق من الوجهة الدولية فى احتلال السودان . وهنا فقرة من كتاب « حرب النهر » لمستر تشرشل ذكر فيها :

« إن جوردون تقدم بالرجاء أن ترسل إليه فى السودان قوات تركية فلم ترسل إليه القوات التركية وطلب أن ترسل إليه قوات من المسلمين الهنود ولكن الحكومة البريطانية اعتذرت بأن هذه القوات عاجزة عن أداء المهمة التى طلبها منها » (١) .

ومن هذا الكلام الذى يقرره المؤرخ ونستون تشرشل يتضح جلياً تسليم إنجلترا بأن السيادة على السودان إنما كانت للدولة التركية وأنه ما كان ممكناً لقوات غير إسلامية أن تشترك فى حملة إخلاء السودان .

ولا داعى فى هذا المقام لأن نسهب فى ذكر ما تم بعد ذلك

(١) Winston Churchill : The River War P. 46.

من حصار المهديين للخرطوم حصاراً دام ثلاثمائة وسبعة عشر يوماً وانتهى بقتل جوردون فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ بعد أن اعترف بصريح العبارة أنه لو كانت الحكومة الإنجليزية قد قبلت إرسال الزبير الذى رشحته الحكومة المصرية لقيادة الحملة لما سقطت بربر إطلاقاً فى يد الثوار ولأمكن فى ليلة واحدة تأليف حكومة سودانية تقاوم المهدى (١).

ومما لا شك فيه أن الحكومة المصرية كانت محقة فى رفض تعيين تشارلز جوردون قائداً لحملة إخلاء السودان وأن إصرار الحكومة الانجليزية على تعيينه قد أصاب مصر بنكبة مفجعة للأسباب الآتية :

١ — إن إدارته للسودان من قبل كانت إدارة سيئة غاية السوء من جهة اختياره لمساعديه ومن جهة الرجال الذين كان يعهد إليهم بمالية السودان دون أن يراقبهم أية مراقبة . إلى حدّ أنه عند ما ذهب إلى السودان كان يرتع فى بحبوحة الرخاء فتركه فى عام ١٨٧٩ مثقلا بالدين وعلى وشك الثورة (٢).

٢ — إن الحكومة المصرية كانت واثقة من أن تعيين

(١) Gordon : Journals at Khartoum.

(٢) Chaillé Long L'Egypte et ses provinces perdue : P. 187.

مسيحى فى مركز قائد الحملة سيسىء إلى عواطف أهالى الأقاليم الجنوبية . ولم تثر هذا الاعتراض بالنسبة لجوردون الإنجليزى وإنما أثارته بالنسبة لغيره . فإن المؤرخ والرحالة الأمريكى شيليه لونج عند ما علم بثورة المهدى فى عام ١٨٨٣ وكان فى باريس أسرع فغادرها وعرض أن يضع سيفه فى خدمة خديو مصر لاسترداد سلطته على السودان ولكن الخديو توفيق باشا أجابه على لسان الدكتور أباتى باشا شاكراً له عرضه معتذراً بأنه نظراً لطبيعة الحركة الدينية فإن كل عنصرأوروبى يجب أن يستبعد لكيلا نعطى للثوار أى مبرر لتفاقم هذه الحركة(١) .

٣ — إن جوردون لم يكد يصل إلى الخرطوم حتى أذاع منشوره الشهير بإعادة السماح بتجارة الرقيق ووقعه باسم «والى وسلطان السودان » وقد خيل إليه أنه بذلك يستميل بعض الذين كانوا يستفيدون من تلك التجارة من أبناء الأقاليم الجنوبية ولم يتورع — متأثراً بهذا الوهم — عن أن ينقض المعاهدة التى كانت مصر وإنجلترا قد وقعتاها فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بشأن إبطال تجارة الرقيق والتى أشير فى المادة الأولى منها إلى « سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق

(١) Chaillé Long : P. 190

السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها[١] » .

وقد لوثت سمعة الحكومة المصرية فى الأسرة الدولية بهذا المنشور الذى أذاعه ممثلهـا الإنجليزى تشارلز جوردون ولو أن صحيفة « التيمس » أرادت تبرير تصرف جوردون فنشرت مقالا زعمت فيه « أن كل إخصائى فى هذا الشأن يعرف أن الرق المنزلى قد نشأ فى الشرق من عهد إبراهيم . وهو يختلف عن الرق الفظيع الذى كان موجوداً فى حقول الجنوب بالولايات المتحدة الأمريكية ! »

٤ — ان جوردون قد أحرق كل آثار الحكومة المصرية المشرفة التى كانت بالخرطوم وكل سجلات الضرائب وكل ما من شأنه أن يفرض التزاماً على الممولين من أبناء الأقاليم الجنوبية لكى يوهمهم أن حكومة المستقبل لن تعتمد على أى مورد مالى من ضرائب الممولين[٢]

ومما يثير الدهشة بل العجب أن المؤرخ ونستون تشرشل فى معرض الكلام عن آثار الوحدة بين مصر والسودان فى أواخر عهد الحكم المصرى أى قبيل نشوب ثورة المهدى قد ذهب إلى تلويث سمعة المصريين فى السودان وإلى تبرير هذه

---

(١) فيليب جلاد : القاموس العام للإدارة والقضاء المجلد الثانى ص ٢٣٨

(٢) Chaillé Long; P. 193

الثورة تبريراً بلغ إلى حد أنه زعم «أن انتصارات المهدى كانت فى مدة حياته أعظم بمراحل من انتصارات النبى الذى كان أول من بشر بالدين الإسلامى وهو النبى محمد[١]» .
وقد دعا فى نهاية الفصل الأول من كتابه أول مؤرخ عربى سيتوفر على دراسة المراحل الأخيرة لحياة الشعب السودانى إلى أن يضع اسم محمد أحمد المهدى بين أسماء أبطال أمته .
وقد سمى الفترة التى استمرت فيها حركة العصيان المهدية باسم إمبراطورية الدراويش وقد دامت هذه الفترة من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٩٨ ولم يعش محمد أحمد المهدى إلا نحو خمسة شهور بعد سقوط الخرطوم فلما مات تولى عبد الله التعايشى زعامة حركة العصيان . وكانت إنجلترا قد بدأت تتبع سياسة التدخل فى شئون مصر والسودان ولذلك نجد صدى لتبرير هذه السياسة فى كتاب « حرب النهر » إذ أن مؤلفه بعد أن ارتفع بزعيم حركة العصيان المهدية إلى مرتبة أعلى من مرتبة النبى وهو فى معرض التنديد بالحكم المصرى فى السودان عاد فهوى بهذه الحركة إلى الحضيض إذ ذكر أن عبد الله التعايشى وهو من قبيلة البقارة بدأ بعد أن تولى السلطة فى أن يدعو أبناء قبيلته إلى المجىء والإقامة فى أم درمان. وأنه كان يكتب إليهم فى رسائله العديدة

Winston Churchill : The River War P. 34. (١)

فيقول «تعالوا وتملكوا الأرض التى أعطاها الله لكم » وهنا يصف تشرشل أنصار الثائر السودانى بأنهم « الرعاة المتوحشون الذين بهرتهم الأطماع المالية ورغباتهم فى الحصول على زوجات جديدات والوعود التى بذلت لهم لتمكينهم من السطوة والقوة وأن ما كان ينسى الخليفة التعايشى أو يرفض أن يعطيه لهم كانوا يحصلون عليه بالسرقة والنهب والسطو وهى جرائم كانوا يرتكبونها فى عنف وهم محتمون بالحصانة التى منحت لهم لقرابتهم للخليفة » .

وليس هذا الوصف فى حاجة إلى تعليق لأن السودانيين الذين كانوا ضحايا الحكم المصرى أصبحوا فى عرف مؤلف كتاب « حرب النهر » لصوصاً وسفاكين لأن الحكومة البريطانية كانت فى ذلك الوقت قد رأت أن تنفذ سياسة التوسع الاستعمارى على حساب وحدة مصر والسودان . . . !

* * *

« لم يحشد ستانلى كتبه بالإشارة إلى مبادىء المسيحية والحب الأخوى وهى المبادىء التى لم يشعر بها قط ؟ أن ستانلى كان ينظر دائماً إلى الرجل الأسود نظرته إلى عدو »

(أميل لودفيج ــ من كتاب العبقرية والشخصية)

ظلت مصر ثابتة القدم فى المديرية الاستوائية حتى بعد الاحتلال البريطانى فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وبعد الثورة المهدية وقتل «جوردون» فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ واحتلال المهديين للخرطوم واستئثارهم بالسلطة عقب ذلك — وقد تابع أمين — آخر حاكم لمصر فى المديرية الاستوائية — أداء واجبه هناك بعد يوم ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهو اليوم الذى وصلت فيه الباخرة تلحوين إلى لادو عاصمة المديرية الاستوائية وهى آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى الجنوب إذ انقطع بعدها ورود البواخر أو البريد أو المدد بسبب إستيلاء المهديين على السلطة وقطع الطريق بين مقر الحكومة المركزية فى القاهرة وأقاليم السودان .

وكان أمين مؤمنا بوجوب الاحتفاظ بجميع منابع النيل التى وصلت إليها مصر وكان «جوردون» — كما رأينا — قبل أن يتولى أمين إدارة المديرية الاستوائية قد أصدر أمراً بإخلاء الجزء الجنوبى الذى يقع جنوب نيل فيكوريا أو نهر سومرست كما يسمى أحياناً الذى يصل بحيرتى «فيكتوريا» و «ألبرت» وعد هذا النهر حداً جنوبياً للمديرية فرفض أمين إذ ذاك أن ينفذ الأمر واضطر جوردون إلى استدعاء «جيسى» من بحر الغزال لينفذه ولكن جوردون استقال فلم

يكد أمين يتولى إدارة المديرية حتى عاد إلى تنظيم الإدارة المصرية فى هذا الجزء الجنوبى .

وقد بقى « أمين » حاكماً للمديرية الاستوائية عشر سنوات بين سنتى ١٨٧٨ ، ١٨٨٩ وخير ما يلخص الحكم المصرى فى المديرية الاستوائية إذ ذاك هو الكتاب الذى أصدره فيتا أفندى حسان الصيدلى الذى عينته الحكومة المصرية لإدارة مستشفى المديرية الاستوائية فى « لادو » والذى أسماه « الحقيقة حول أمين باشا » فقد ذكر أن المديرية الاستوائية كانت مقسمة عند بدء الثورة المهدية عام ١٨٨١ إلى عشر مراكز وكان كل مركز مقسما إلى جملة محطات فبلغ عدد المحطات ١٨٠ ومراكز المديرية الاستوائية فى آخر العهد المصرى كانت على النظام الآتى :

بور على ضفة النيل « بحر الجبل » الشرقية .

لادووكيرى على ضفة النيل « بحر الجبل » الغربية ودوفيليه على ضفة النيل « نيل البرت » الغربية .

وفاديك شرق النيل « نيل البرت » ولاتوكا شرق النيل « بحر الجبل »

رول ومكراكا ومبتو غرب النيل « بحر الجبل »

ولعل أول دراسة علمية لقبائل جنوب السودان هى الدراسة

التى تضمنها هذا الكتاب « الحقيقة حول أمين باشا » الذى صدر لبيان ما بذلته مصر فى أقاليمها الجنوبية من جهد فى إدخال الحضارة إليها فقد تضمن هذا الكتاب حقائق لم تتضمنها الكتب الأوربية والأمريكية التى أصدرها المبشرون عن هذه القبائل فيما بعد . إذ قرر مؤلفه أن قبيلة الدنكا تسكن منطقة بور وأن قبيلة البارى تســكن لادووكيرى أى المنطقة التى حول جوبا عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وأن قبيلة المادى تســكن دوفيليه كما تسكنها قبيلة الكوكو . وأن قبيلة الماجنجو تسكن فويرا وقبيـــلة لاتوكا تسكن لاتوكا وهى تتوسط الآن بلدة توريت من أعمال المديرية الاستوائية شرق النيل «بحر الجبل» وأن قبيلة الشولى تسكن فاديبك بين لاتوكا وفويرا وأن قبيلة ماكراكا تسكن غرب النيل « بحر الجبل » وقد قسم قبيلة الدنكا إلى قسمين ، الدنكا الجانجية وتسكن شمال المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال والدنكا السجيحة وتسكن مع النوير والشيلوك منطقة فاشودة فى مديرية أعالى النيل الحالية . وقرر المؤلف أيضاً أن قبائل نيام نيام وهى التى يطلق عليها الآن فى التعبير الأثنولوجيك اسم زاندى تسكن غرب المديرية الاستوائية على حدود الكونغو البلجيكى فى المنطقة التى تتوسطها الآن

بلدة (يامبيو) وذكر أن أفراد هذه القبيلة من أكلة لحوم البشر وهى الأخرى حقيقة علمية أتنولوجية أيدتها الدراسات العلمية اللاحقة لهذا الكتاب المصرى .

كما قرر فى الكتاب نفسه أن أمين باشا أدخل إلى المديرية الاستوائية زراعة القطن والأرز وجملة أصناف من الخضر والفاكهة والمطلع على الإحصاءات الرسمية لنظام الحكم المصرى فى المدينة الاستوائية يتضح له أن مصر كان لها ٩٩٠ جندياً نظامياً و ٥٤٠ من الخطرية و ٤٠٠ من التراجمة وأن مجموع قبائل الزنوج فى هذه المديرية قبل إرغام مصر على إخلائها كان نحو نصف مليون . ويتضح جلياً عن التقرير الذى وضعه أمين باشا فى سنة ١٨٨٢ عن أحوال المديرية الاستوائية مالهذه المنطقة من موارد ثروة ومواد خام كانت هى السبب فى المحاولات الاستعمارية التى بذلت فيما بعد لاغتصابها من مصر .

فقد ورد فى هذا التقرير بعد استعراض ما تضمه المديرية من مواد خام .

« . . . . وهكذا تتوفر لدينا مجموعة من مواد النسيج ومجموعة من مواد التلوين وعدا ذلك فأمامنا ميدان رحب فسيح للتجارة وللصناعة وعلى الأخص فى القسم الجنوبى من المديرية وأينما ذهبنا نجد الكثير من الحديد الجيد وما ذاب

وسوته يد الصانع فى البلد نفسه انقلب أداة نافعة فيكثر طلبها فى الشمال والغرب حيث أسنة الحراب والسهام ويقيم أشهر الحدادين فى « ممبتو » و « مكراكا » أى غرب النيل « بحر الجبل » والبعض منها نال فى هذه الصناعة شهرة فائقة . . . . وأظن أن المـــديرية الاستوائية تحمل فى جوف أرضها من أنواع المعادن كنوزاً لا تزال خافية عن أنظار العالم » .

وقد تطور الحكم المصرى فى المديرية الاستوائية بعد أن وصل المهديون فى منتصف يونيو سنة ١٨٨٢ بقيادة « نور عنقرة » إلى بحر الغزال وكان مديرها إذ ذاك « لبتون بك » فطرأت فكرة فى « لادو » عاصمة المديرية ترمى إلى إخلاء المديرية .

ولكن الضباط المصريين والسودانيين الذين كان عدد كبير منهم قد اشترك فى الحملة المصرية التى أرسلت لتحارب فى المكسيك فى أواخر عهد الخديو سعيد وعادت إلى مصر فى أوائل عهد الخديو إسماعيل عارضوا فى إخلاء المديرية وتزعم المعارضة الضابطان « مرجان الدناصورى » وهو من ضباط حملة المكسيك و « حواش منتصر » .

وقسمت المديرية إلى حكمداريتين تولى مرجان قيادة

الحكمدارية الشمالية وتولى حواش قيادة الحكمدارية الجنوبية التى كان يقع فى منطقة نفوذها معظم أراضى أوغنده الحالية.

وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٥ انتصر المهديون بقيادة الأمير كرم الله فى أمادى بالمديرية الاستوائية غربى النيل «بحر الجبل».

وفى أوائل ابريل سنة ١٨٨٥ استبسل المصريون بقيادة الضابط سليمان سودان ببلدة ريمو التابعة لمركز ماكراكا استبسالا أرغم المهديين على التراجع بلى على إخلاء « أمادى » التى كانوا قد انتصروا فيها من قبل وعلى إخلاء مديرية بحر الغزال .

وفى ٢٤ إبريل سنة ١٨٨٥ عقد اجتماع برئاسة أمين باشا فى « لادو » عاصمة المديرية تقرر فيه من باب الاحتياط نقل العاصمة إلى « وادلاى » التى تقع الآن فى حدود أوغندة الحالية بين خطى عرض ٢ ، ٣ على النيل بعد خروجه من بحيرة ألبرت .

وفى ديسمبر سنة ١٨٨٥ أرسلت ثلة من الجنود إلى « ماجونجو » على ضفة بحيرة ألبرت عند مخرج النيل منها فى حدود أوغندة الحالية وكان الغرض الاستعداد لجعلها عاصمة المديرية الاستوائية لو تم إخلاء وادلاى .

وفى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٦ وصل خطاب نوبار باشا

رئيس الوزراة المصرية المؤرخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ والموجه إلى أمين باشا قائد جنود خط الاستواء فى الاسماعيلية « غندوكرو » وقد جاء فى هذا الخطاب .

« إذا رأيتم أن الأضمن لكم ولجندكم الانسحاب والرجوع إلى مصر فالسير جون كيرك ممثل بريطانيا وسلطان زنزيبار يكتبان لمختلف رؤساء قبائل الزنوج الضاربين فى الطريق ويبذلان ما فى وسعهما لكى يسهلا لكما الانسحاب » .

وفى ١٣ مارس ١٨٨٦ – بعد استلام خطاب نوبار باشا ورغم الاحتلال البريطانى لمصر واستيلاء المهديين على السلطة فى الخرطوم بقتل جوردون فى يناير سنة ١٨٨٥ ورغم انقطاع كل مدد من مصر بوصول الباخرة « تلحوين » إلى لادو فى ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهى آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى المديرية الإستوائية – رغم ذلك كله قامت القوة المصرية فى المديرية الإستوائية باحتلال جزيرة « تونجورو » عند مخرج النيل من بحيرة « ألبرت » وهو تقع فى حدود أوغندة الحالية وتولت الباخرة المصرية « نيانزا » نقل الضابط محمد مسعود وجنوده إلى الجزيره .

وفى أواخر سنة ١٨٨٦ أدخل أمين باشا تعديلا على تقسيم مراكز المديرية الاستوائية ففصل أراضى مركز « ماهاجى »

غرب بحيرة ألبرت فى حدود الكنغو البلجيكية الحالية — مع نقطتى « تونجورو » و « مسوا » عن قسم المديرية الجنوبى وألف منها مركزاً قائماً بذاته وفوض لفيتا حسان الصيدلى المعين من قبل الحكومة المصرية إدارته وهذا المركز بالنقط التابعة لها جميعها يقع فى حدود أوغنده الحالية .

وفى سنة ١٨٨٧ قام الصحفى الإمريكى هنرى ستانلى برحلة أخرى إلى منابع النيل بحجة إنقاذ أمين باشا الذى كانت سمعته العلمية قد أثارت اهتمام الدوائر الجغرافية الدولية رغم أن أمين باشا لم يطلب هذه النجدة ورغم أن الرحالة « فلكن » Felkin قد نشر فى صحيفة التيمس الصادرة فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦ رسالة . وردت إليه من أمين باشا تاريخها ٧ يوليو من نفس السنة ذكر فيها « إننى سعيد إذ أستطيع أن أخبركم اننى فى أمان وان المديرية فى غاية الهدوء » ورغم أن الضابط الأمريكى « شيليه لونج » قد كتب فى ٥ يناير سنة ١٨٨٧ خطاباً من نيويورك إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة ذكر فيه

« كعضو شرف فى جمعيتكم أرسل إليكم مقالا عن الأدوار التى لعبت فى أفريقيا الوسطى وبدأت لعبها كرئيس أركان حرب جردون باشا حاكم عام السودان ثم لعبها ستانلى مراسل

صحيفتى « نيورك هيرالد » و « لندن تلجراف » . إن آخر الأنباء تدل على أن أمين باشا يتمتع بصحة تامة وإنه بعيد عن كل خطر . إننى أكتب هذا لألفت نظر سمو الخديوى ونظر الجمعية الجغرافية فى القاهرة إلى أن بعثة ستانلى لا يمكن أن يكون لها إلا هدف واحد هو انتزاع إقليم خط الاستواء وحوض النيل الأعلى من مصر وهو الإقليم الذى قمت أنا نفسى بضمه لمصر ووقعت وثيقة الضم بدمى »

ولا شك أن « لونج » يقصد بهذه الوثيقة المعاهدة التى وقعها باسم مصر مع ملك أوغندة بعد أن قابله فى ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ والتى أبلغتها الحكومة المصرية إلى الدول فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل إرسال خطابه بأربعة عشر عاماً .

وقد نشر خطاب شيليه لونج المشار إليه فى الفقرة السابقة فى صحيفة « البوسفور إيجيبسيان » فى يوم وصول ستانلى إلى القاهرة فسأله مراسل صحيفة « ديلى نيوز » الإنجليزية عما جاء به وصدرت الصحف فى اليوم التالى وفيها هذه البرقية .

« سألت ستانلى عما إذا كان قد اطلع على الخطاب الذى نشر بشأن الغرض من بعثته فأجابنى إننى لم أطلع ولا أهتم بالاطلاع عليه . . . إننى أضحك من فكرة اتهامى بأن الرحلة التى أقوم بها إنما هى لحساب إنجلترة وبغرض انتزاع

أقاليم تابعة إلى مصر . وهى أقاليم لا تستحق هذا العناء كما أننا لسنا مبعوثين من قبل إنجلترا » (١) .

ولم يكتف شيليه لونج بإرسال خطابه إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة وبنشر مقاله فى صحيفة « البوسفور إيجبيسيان » بل لجأ إلى مجلة « لا نوفيل ريفو » التى كانت تصدرها بباريس السيدة جولييت آدام التى اشتهرت بدفاعها عن حقوق مصر التى كانت إنجلترا قد بدأت تنظم الاعتداء عليها عقب عام ١٨٨٢ ونشرت له هذه المجلة مقالا فى عددها الذى صدر بتاريخ ١٥ مارس عام ١٨٨٧ بدأه بأن قرر « إن ضجة كبيرة قد اثيرت منذ مدة حول بعثة جديدة يشكلها هنرى ستانلى لإنقاذ رجل أوربى هو أمين باشا آخر ضابط فى الجيش المصرى الذى لا يزال يقاوم ولا يزال يرفع بقوة علم الخديوى فى الأقاليم التى تمد النيل الأعلى بالماء . . .

إننا نرى أن من الحكمة دراسة هذا الموضوع عن كثب لنرى أية خطط سياسية تخفيها بعثة ستانلى وهى بعثة تعمل تحت إشراف الحكومة البريطانية المباشر وبذهبها المختلس من الخزانة المصرية . . . إن ستانلى له هدف خفى . لن

(١) Chaillé Long p. 218

ينكشف إلا عندما لا يتاح الوقت الكافى لإبداء أقل اعتراض »
وفى ٢٩ إبريل سنة ١٨٨٨ وصل هنرى ستانلى إلى مقر أمين
باشا عند بحيرة ألبرت وفى ٣ مايو سنة ١٨٨٨ عرض ستانلى
على أمين باشا العروض الآتية وهى : —

(ا) أن تستمر كما كنت الجندى المطيع فتعود إلى
مصر معى على أن تتقاضى أنت وجنودك مرتباتكم المتأخرة .

(ب) عرضى الثانى من قبل جلالة الملك ليوبولد ملك
البلجكيين الذى كلفنى أن أخطرك بأنه — لكى يمنع تدهور
أقاليم خط الاستواء فى مهاوى البربرية — يبدى استعداده لأن
يدفع لك الفاً وخمسمائة جنيه استرلينى سنوياً وأن تعين حاكماً
برتبة جنرال بشرط أن يكون إيراد هذه الأقاليم بحيث يتيح
لحكومة الكنغو أن تباشر استغلالها .

حـ — إذا كنت مقتنعاً بأن جنودك سيرفضون أن يتبعوك
إلى مصر فإنى أعرض عليك أن تذهب مع أكبر عدد ممكن
من الجنود المتعلقين بك إلى شمال شرق بحيرة فيكتوريا حيث
أمكنك من الاستقرار باسم شركة شرق أفريقيا وسنساعدك
على بناء قلعة ونترك لك سفننا والمعدات الأخرى الضرورية

وقد وردت هذه العروض باعتراف هنرى ستانلى فى
كتابه فى غياهب القارة In dorkest continent .

وقد اضطر أمين باشا إلى إخلاء منطقة منابع النيل بعد أن قاوم مقاومة عنيدة ثم غادر القارة الإفريقية عن طريق زنزيبار عام ١٨٩٠ مع ستانلى .

وانكشفت المحاولة الاستعمارية بالأسلوب الذى اتخذ لإنقاذ أمين باشا إذ ورد صراحة فى العرض الثالث من عروض ستانلى على أمين باشا أن يعمل الأخير باسم شركة شرق أفريقيا والمقصود بذلك هى الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية . The Imperial British East Africa Company التى كانت قد تأسست فى نفس العام لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى .

ويتبين مما سبق أن مصر دون غيرها من دول العالم قد انفردت بمهمة إدخال الحضارة فى أقاليم السودان طيلة سبعين عاماً أى فى المدة من ١٨٢٠ إلى ١٨٩٠ وفى أوغندة عشرين عاماً كما يتبين أن مصر ظلت ثابتة القدم فى جنوب السودان وبتعبير أدق فى المديرية الاستوائية حتى بعد بدء الثورة المهدية فى أغسطس سنة ١٨٨١ بهزيمة الحملة التى جردها رؤوف باشا حاكم عام السودان للقبض على محمد أحمد المهدى فى جزيرة « أبا » وحتى بعد بدء الثورة العرابية فى سبتمبر ١٨٨١ وحتى بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

وأخيراً حتى بعد قتل جوردون وسقوط الخرطوم فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ وإقامة الحكم المهدى ثم حكم التعايشة بعد ذلك .

وتبينا أن ما كان يسمى جنوب السودان إلى أن اضطرت مصر إلى إخلائه عام ١٨٩٠ كان يشمل معظم حدود أوغندة الحالية فمركز « دوفيليه » على ضفة النيل الغربية ومركز « فويرا » ومركز « فاديلك » شرق النيل ومركز « ماجنجو » عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت ، هذه المراكز الأربعة كانت من مراكز المديرية الاستوائية طبقاً للتقسيم الإدارى الذى نظمه أمين باشا آخر حاكم لمصر فى المديرية الاستوائية والمراكز الأربعة تقع الآن فى حدود أوغندة و « وادلاى » التى تقع على ضفة النيل الشرقية اتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية بعد تهديد المهديين « للادو » عاصمة هذه المديرية وظلت « وادلاى » مقر الحكم المصرى إلى أن تم إخلاء جنوب السودان ، و « وادلاى » تقع الآن فى حدود أوغندة .

* * *

فلما عاد الجيش المصرى عام ١٨٩٨ إلى السودان صحب معه بعض الزعماء « الختميين » الذين كانوا قد فروا أمام اضطهاد « الأنصار » لهم وكان بين المصريين والإنجليز من من جانب وبين « الأنصار » دم « جوردون » وبين « الختميين »

من جانب ونفس « الأنصار » دم العدد الكبير من « الختميين » الذى اغتيل ونكل به ونهب ماله وسبيت نساؤه طيلة الأعوام الأربعة عشر التى استأثر أثناءها المهديون وأنصارهم بحكم السودان .

وكان من الطبيعى أن تستعين السلطات المصرية الإنجليزية بالختميين على إقرار النظام فى السودان عقب استعادته ولمع نجم الطريقة « الختمية » وأصبحت لرؤساء الختميين مكانة مرموقة شبه رسمية فى مقر الحكم بالسودان وظلوا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى يتصدرون حفلات الحاكم العام فى سرايه بالخرطوم .

وعانى « الأنصار » عقب معركة أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ التى منى الأنصار فيها بهزيمة ساحقة وعقب قتل الخليفة التعايشى فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩ بعد أن اعتصم مع أنصاره نحو عام فى كردفان متحدياً سلطة الحكومة الشرعية فى الخرطوم . عانى الأنصار عقب ذلك نوعاً من الاضطهاد الذى أذاقوه من قبل طيلة أربعة عشر عاماً للختميين . وزال ما كان لهم من نفوذ واسترد « الختميون » فى حياة السودان العامة الصفوف الأولى التى كان « الأنصار » قد اغتصبوها منهم .

وبقى « الأنصار » وخاصة أسرة محمد أحمد المهدى وخليفته عبد الله التعايشى مشردين بين السجون وأتفه الأعمال

والوظائف بينما كان « الختميون » يتصدرون الصفوف وعاش « الأنصار » على ذكرى السلطان القديم الذى ظل لهم مدة أربعة عشر عاماً حتى استعادت مصر السودان .

وانقضت أربعة عشر عاماً أخرى .

وأقبل عام١٩١٢ قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى فكلف مأمور مركز « كوستى » الواقع على مقربة من جزيرة « أبا » التى بدأ محمد أحمد المهدى حركة العصيان ضد مصر فيها بأن يستدعى ابن محمد احمد المهدى لمقابلة الحاكم العام فى الخرطوم .

وقرأ الناس بعد ذلك ببضعة شهور أى عند بدء الحرب العالمية الأولى فتوى من « زعيم الأنصار » بأن محاربة الأتراك جائزة شرعاً لأنهم تحالفوا مع الألمان على محاربة الأسرة الهاشمية والمسلمين فى بلاد العرب وقيل إن زعيم الختميين قد رفض إعطاء مثل هذه الفتوى .

وبدأ الإنجليز منذ ذلك الوقت أى منذ أوائل الحرب العالمية الأولى يحققون نوعاً من « التوازن » بين قوى ذينك الزعيمين الدينيين المسلمين .

ولما قامت مصر بنهضتها الوطنية عام ١٩١٩ مطالبة باستقلال وادى النيل وأعلن الدستور المصرى وتبين أهل

مديريات شمال السودان ما لاقاه المصريون من عنت فى سريان هذا الدستور على مصر والسودان معاً تكون وعى يؤاخى وعى مصر وبرزت إلى الوجود فى شمال السودان جمعية « اللواء الأبيض »

ولم تكد تقع حادثة مقتل السردار ويرغم الجيش المصرى على ترك السودان حتى نظم طلبة الكلية الحربية فى الخرطوم مظاهرة نادوا فيها بحياة ملك مصر والسودان واشتركت الأورطة السودانية التى كانت منتدبة من « ملاكال » فى مظاهرات الخرطوم المؤاخية لمصر فتبينت السياسة الإنجليزية أنها يجب أن تتخذ خطوتين للفت فى عضد هذا الوعى القومى السودانى الجديد .

أولاهما ـ تحويل اهتمام أهل شمال السودان بهذا المصير السياسى المشترك بين مصر والسودان إلى شأن آخر .

ثانيهما ـ فصل شمال السودان عن جنوبه احتياطاً لعدم نجاحها فى الخطوة الأولى .

وكان طبيعياً بالنسبة للخطوة الأولى أن تزيد فى عوامل الفرقة بين « الأنصار » الذين رأينا أنهم كانوا قد طال حرمانهم من كل مزايا النفوذ والسلطان منذ عودة المصريين إلى السودان عام ١٨٩٨ وبين « الختميين » الذين كانوا قد استردوا نفوذهم

السابق على قيام محمد أحمد المهدى بحركته وتصدروا حياة السودان العامة .

وأخذ نجم « الأنصار » يلمع ، وبدأ السودانيون يتناقلون أخبار آلاف الأفدنة التى منحت حكومة السودان لهم حق الانتفاع بها دون ملكية الرقبة التى ظلت فى يد تلك الحكومة تسحبها متى شاءت وأحس « الختميون » بما يبيت لهم فزاد ذلك من تعلقهم بفكرة الوحدة مع مصر .

وفى عام ١٩٣٦ وبعد توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا توقع الجانب الإنجليزى أن تطالب مصر بحقها فى الاشتراك اشتراكاً فعلياً فى إعداد السودان لحياة ديموقراطية أفضل من حياته الراهنة . واستعد ذلك الجانب فعلا لإخلاء بعض المراكز الرئيسية فى حكومة السودان من شاغليها البريطانيين لكى يحل المصريون محلهم فلما لم يحدث ذلك ـــ مع بالغ الأسف ـــ أسرع الجانب الإنجليزى إلى التقدم فى خطوته الأولى بإغراء بعض السودانيين من الأنصار أو من هم على شاكلتهم بهذه الوظائف .

وفى عام ١٩٣٨ أحس الجيل الجديد من السودانيين بالمحاولة الإنجليزية فأسسوا الهيئة التى أطلقوا عليها « اسم مؤتمر الخريجين » وعقدت أول دورة لها فى أوائل ذلك العام . وفى

٢ أبريل عام ١٩٤٢ قدم « مؤتمر الخريجين » مذكرة إلى الحاكم العام طالبوا فيها بحق السودان فى تقرير مصيره وفى عام ١٩٤٣ أصدر مؤتمر الخريجين قراراً أعلن فيه رغبة السودانيين فى قيام حكومة سودانية ديموقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى .

* * *

« فرق تسد كان شعار الدولة الرومانية القديمة فليكن شعارنا »

لورد إيلفنستون

وأسرعت السياسة الاستعمارية لدفع المعسكر الآخر إلى العمل إذ أنشأت حزب الأمة عام ١٩٤٥ وأصدر هذا الحزب صحيفة تحمل اسمه وبدا طابع الأنصار – أى أنصار الحركة المهدية القديمة وأعضاء أسرة المهدى وأصهارها – بارزاً فى تكوين هذا الحزب وتمويله وإن كانت لباقة المحاولة الاستعمارية قد شاءت أن يكون غرض الحزب الظاهرى المطالبة باستقلال السودان !

وأمعنت السياسة الاستعمارية فى لباقتها فنشر السكرتير الإدارى فى شهر إبريل سنة ١٩٤٥ بياناً فى الصحف حذر فيه موظفى الحكومة الذين يعملون كأعضاء فى حزب أو هيئة سياسية من الاشتراك فى أى عمل يحط من سلطان هذه الحكومة

أو يهاجم كيان الحكم الثنائى فى السودان أو الحكومة البريطانية أو الحكومة المصرية وإلا اضطر بدون أى تحـــذير آخر لمنع أولئك الموظفين من العمل فى أية لجنة أو القيام بدور هام فى تلك الأحزاب أو الهيئات . ولكن السودانيين كانوا يرون بأعينهم و يكادون يلمسون بأيديهم أن وظائف الحكومة والشركات البريطانية والأراضى الزراعية ورخص آلات رفع مياه الري لهذه الأراضى كادت تصبح وقفاً على أعضاء حزب الأمة وأنصاره والموالين له ممن يطالبون باستقلال السودان ! وأما ثانى الخطوتين اللتين كانت قد اعتزمت السياسة الإنجليزية الإقدام عليهما عقب بدء السودانيين الشماليين فى مؤاخاة وعى مصر القومى وهى فصل جنوب السودان عن شماله فقد تطورت بالشكل الآتى .

(ا) فى عام ١٨٨٧ أرسل هنرى استانلى بحجة إنقاذ أمين باشا الذى عينته مصر حاكماً للمديرية الاستوائية وظل يشغل هذا المنصب سبع سنوات بعد الاحتلال البريطانى .

(ب) فى عام ١٨٨٨ تأسست الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية مستورة بأغراض تجارية .

(حـ) فى أول يوليو سنة ١٨٩٠ عقدت بين بريطانيا

وألمانيا الاتفاقية التى اعترفت بها الثانية للأولى بنفوذها فى منطقة منابع النيل

(ى) فى ٢٩ مايو سنة ١٨٩٤ عقدت معاهدة بين ملك أوغندة وممثل الشركة الإمبراطورية وضعت بها أوغندة تحت الحماية الإنجليزية ولم تشمل هذه الحماية ولايات « أونيورو » و « تورو » و « أنكول » وهى بقية أراضى أوغندة .

(ه) فى يونيو سنة ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة البريطانية عن حقوقها !

(و) فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ عقدت اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا التى نصت مادتها الأولى على أن :

« كلمة السودان فى هذه الاتفاقية تعنى كل الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء وهى الأراضى التى :

١ — لم يخلها الجيش المصرى قط منذ عام ١٨٨٢

٢ — التى كانت قبل الثورة الأخيرة فى السودان تديرها حكومة سمو الخديوى ففقدتها مصر مؤقتاً ثم استعادتها حكومة جلالة ملك بريطانيا والحكومة المصرية بالاتفاق معاً .

٣ — التى قد تحتلها الحكومتان بالاتفاق معاً »

ويبدو من هذا النص أن حدود السودان الجنوبية لم

تعين بوضوح مما يقطع بأن الحكومة البريطانية حتى عام ١٨٩٩ ورغم المعاهدات الصورية التى عقدت بين الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية وملك أوغندة ثم بين هذه الشركة والحكومة البريطانية كانت تحس بأن وجودها فى المديرية الاستوائية يعوزه السند الشرعى ولذا تركت حدود السودان الجنوبية معماة مبهمة لكى تكون لها حرية العمل فى المستقبل تبعاً لتطورات الحوادث

وفى يونيو سنة ١٨٩٩ قامت ثورة فى أوغندة فاستعانت الحكومة البريطانية بفرقة بنادق أفريقيا الشرقية وبقوات من الهند لقمعها ثم عينت مندوباً سامياً هوسير هارى جونستون فى أول يوليو من ذلك العام وطبقت السياسة الاستعمارية للمرة الأولى فى أفريقيا نظام « الحكم غير المباشر » وفرض هذا النظام على بقية أراضى أوغنده ففرض على تورو فى عام ١٩٠٠ وعلى أنكول فى عام ١٩٠١ بواسطة اتفاقات صورية مع أمرائها .

(ز) وقد استغلت الحكومة البريطانية عقب استعادة السودان ضعف الحكومة المصرية التى لم تثر نكبة اغتصاب الجزء الجنوبى من المديرية الأستوائية الذى كان — إلى عام ١٨٩٠ — يضم كما رأينا مراكز « دوفيليه » و « فاديلك » و « فويرا » و « ماجنجو » بل كان يضم « واد لاسى »

العاصمة الأخيرة لتلك المديرية . استغلت الحكومة البريطانية ذلك الضعف لتثبت قدمها فى الجزء الجنوبى للمديرية الاستوائية فلما عاد الجيش المصرى إلى السودان عام ١٨٩٩ اقتصر فى توزيع وحداته على الجزء الشمالى من المديرية الاستوائية وكاد الاغتصاب يصبح حقيقة مادية بتوالى الزمن .

(ح) فى عام ١٩٣٧ بعد عودة الجيش المصرى إلى السودان تنفيذاً لمعاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا لم يمكن هذا الجيش من دخول جنوب السودان بل اقتصر على البقاء فى الخرطوم .

(ط) عدت حكومة السودان مديريات جنوب السودان الثلاث وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعالى النيل منطقة مغلقة closed area وبررت ذلك باعتبارات صحية . ومنعت حتى السودانيين من دخولها إلا بإذن خاص .

(ى) استعانت حكومة السودان بالمبشرين المسيحيين الذين انتشروا فى جنوب السودان انتشاراً هائلا عقب إخلاء الجيش المصرى له عام ١٩٢٤ على اذاعة الرعب فى قلوب الجنوبيين من الشماليين فكل شمالى « جلاب » وهو الاسم الذى كان يطلق على النخاسين أيام تجارة الرقيق . وجنوب السودان يتكون من قبائل عديدة لكل منها لغتها الخاصة ولذلك عمدت السياسة

الاستعمارية لتحقق فصل الجنوب عن الشمال إلى طبع كتب بالإنجليزية فى لغات تلك القبائل وطباع أبنائها. وكل مبشر يكلف بالعمل فى منطقة معينة عليه أن يتعلم لغة القبيلة التى تسكن هذه المنطقة ومعظم هؤلاء المبشرين يتولون تدريب أتباعهم من السودانيين الجنوبيين على مهنة معينة كالنجارة أو قيادة السيارات لكى يمكن لهؤلاء الأتباع الارتزاق من مزاولة هذه المهنة .

ولقد تبينت بنفسى أثناء إقامتى فى (جوبا) عاصمة المديرية الاستوائية ان الجنوبيين من مختلف القبائل التى تسكن هذه المديرية والتى يبلغ عددها عشرا على الأقل هى قبيلة «البارى» فى جوبا وتوريت و «الشولى» فى نيمولى — الابراهيمية — و «الزاندى» فى يامبيو وكلها من القبائل التى لا تزال تعيش فى نفس المناطق التى كانت تعيش فيها منذ تولى أمين باشا إدارة هذه المديرية حتى عام ١٨٩٠ وقد أشير إليها فى كتاب (الحقيقة حول أمين باشا) الذى وضعه فيتا أفندى حسان كما ورد فى هذا البحث من قبل. وإلى جانب هذه القبائل الرئيسية توجد قبائل فرعية مثل قبيلة (الديد نجا) فى كابوتا شرق النيل «بحر الجبل» وقبيلة (الفيجولو) فى لوكا وقبيلة (الأبوكايا) فى يى وقبيلة (المورو) فى ماريدى وكلها غرب النيل «بحر الجبل» وقبيلة (الموندارى) فى تريكاكا

على ضفة النيل « بحر الجبل » الغربية تبينت أن الجنوبيين لايقتصرون على النفور من الشماليين الذين يعملون فى بعض الشركات كشركة الخطوط الجوية السودانية أو الذين يعملون فى إدارات حكومة السودان المختلفة بل إنهم يكادون يقاطعونهم. بتحريض من البريطانيين فنادى جوبا الذى أسسه بعض المتعلمين من الشماليين الذين اجتمعوا فى جوبا لا يتردد عليه أحد من الجنوبيين إطلاقاً رغم أنه يقع فى قلب عاصمة المديرية الاستوائية وقد تحققت من أن محاولات عديدة بذلت لإقناع الجنوبيين المتعلمين بالانضمام للنادى ولكن دون جدوى .

وقد ذكر لى أحد مهندسى الرى المصريين أن أحد الجنوبيين المتعلمين تحرش به توهماً من هـــذا الجنوبى بأن المهندس المصرى قد رمقه بنظرة احتقار كما أكد لى هذا المهندس بأنه تحدث إلى عديدين من هؤلاء الجنوبيين فتبين انهم يتوهمون — بايحاء من البريطانيين — بأن كل شمالى إنما تنطوى نفسه على الرغبة فى استعباد الجنوبيين وفى إعادة عهد النخاسة بشكل أو بآخر !

(ك) فى عام ١٩٤٤ أنشأت حكومة السودان مجلساً استشارياً لشمال السودان وحده أى للمديرية الشمالية والخرطوم وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور دون مديريات جنوب

السودان وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعالى النيل وكان المجلس مكوناً من ثمانية عشر عضوا يمثلون مجالس المديريات وعشرة أعضاء عينهم الحاكم العام وعضوى شرف هما السيد على المرغنى باشا رئيس الطريقة « الختمية » والسيد عبد الرحمن المهدى باشا رئيس « الأنصار » .

وكان قصر تمثيل المجلس الاستشارى لشمال السودان نوعاً من جس النبض لما اعتزمته السياسة الإنجليزية وتبين فى المراحل السابقة من فصل هذا الجزء الجنوبى وضمه إلى أوغندة بعد أن فصلت أوغندة عن المديرية الاستوائية .

* * *

طالب بالخبز فاعطيناه حق التصويت

لورد هيلى

وينص ما يسمى دستور سنة ١٩٤٨ على إنشاء «مجلس تنفيذى» مكون من عدد يتراوح بين ١٢ ، ١٨ عضواً نصفهم على الأقل من السودانيين ويضم « زعيم الجمعية التشريعية » والوزراء وبعض المستشارين الذين لا يتولون وزارات معينة ووكلاء الوزارات كما ينص هذا الدستور على إنشاء « الجمعية التشريعية » التى تضم عشرة أعضاء منتخبين بطريق الانتخاب المباشر يمثلون المدن السبع الكبرى فى السودان واثنين وأربعين عضواً

منتخبين بطريقة الانتخاب غير المباشر يمثلون باقى أنحاء السودان الشمالى . وثلاثة عشر عضواً يمثلون مجالس المديريات الجنوبية الثلاث. وعشرة أعضاء يعينهم الحاكم العام. وأعضاء « المجلس التنفيذى » إذا لم يكونوا قد انتخبوا أو عينوا فى الجمعية .

والمجلس التنفيذى فى السودان – حتى اكتوبر ١٩٥١ – مكون من وزير الزراعة ووزير الصحة ووزير المعارف وهم سودانيون ومن مستشار بلا وزارة سودانى واثنين من المستشارين البريطانيين والسكرتير الإدارى والسكرتير القضائى والسكرتير المالى وهم بريطانيون ومن قائد الأمن ومن اثنين من وكلاء الوزارات السودانيين .

ورغم كثرة عدد القبائل فى مديريات جنوب السودان الثلاث فإن الجمعية التشريعية لا تضم إلا ممثلى ثلاث قبائل فقط فمن بين الخمسة الذين يمثلون المديرية الاستوائية ممثل لقبيلة « البارى » وممثل لقبيلة « المورو » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية أعالى النيل ممثل لقبيلة « الدنكا » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية بحر الغزال ممثل آخر لقبيلة « الدنكا » وباقى الثلاثة عشر ممثلا لجنوب السودان موظفون سابقون فى حكومة السودان عينوا تعييناً بواسطة المديرين البريطانيين

الذين يرأسون مجالس المديريات .

وقد تبينت الهيئات الوطنية السودانية هذه اللعبة الاستعمارية التى قصد بها صرف السودانيين عن التفكير فى مصيرهم السياسى المشترك مع إخوانهم المصريين فقاطعت انتخابات هذه الجمعية التشريعية التى تمخضت عن شبه لجنة من لجان حزب الأمة الذى يدعوا ظاهراً إلى استقلال السودان أى يعارض فكرة الوحدة مع مصر .

وقد وفقت السياسة الاستعمارية فعلا فى صرف تفكير نفر من السودانيين عن الحقائق المادية التى يكاد وهجها يعمى البصر ، صرفتهم عن التفكير فى أن السودان الذى يبلغ عدد سكانه نحو ثمانية ملايين لا تزيد إيراداته السنوية عن عشرة ملايين من الجنيهات وفى أن هذه الإيرادات كانت عندما أرغم الجيش المصرى إرغاماً عام ١٩٢٤ على ترك السودان أربعة ملايين ومائتين وثمانية وتسعين ألفاً وثمانمائة وستة وخمسين جنيهاً فلم تزد عام ١٩٣٩ إلا إلى خمسة ملايين وثلاثة وخمسين ألفاً وسبعمائة وخمسة وستين جنيهاً ولم تتعد عام ١٩٤٧ — وهو آخر بيان رسمى منشور — عشرة ملايين ومائة وواحد وأربعين ألفاً وأربعمائة وخمسة وتسعين جنيهاً . والمصروفات فى ميزانية السودان تنقص بقدر يسير عن الإيرادات فلا ينال السودانى

من ميزانية حكومته هناك أكثر من جنيه واحد فى العام مما يدل على إهمال استغلال الثروة القومية إهمالا شائناً وبالتالى إهمال مرافق الإصلاح العامة بسبب عجز الإيرادات عن الاضطلاع بما تتطلبه مشروعات الإصلاح من نفقات ويكفى لتبين الفرق بين مصر والسودان فى هذا الشأن أن نذكر أن الميزانيه المصرية تزيد عن مائتى مليون من الجنيهات وقد تضاعفت هذه الميزانية خمس مرات عما كانت عليه قبيل عام ١٩٣٩ تنفق على عشرين مليوناً من المصريين أى أن نصيب المصرى من هذه الميزانية لا يقل عن عشرة أضعاف نصيب أخيه السودانى .

ولما أجمعت الهيئات الوطنية السودانية على مقاطعة الجمعية التشريعية عادت السياسة الاستعمارية تضفى لوناً جديداً على هذه الأسطورة فأبدت استعدادها لتعديل الدستور تعديلا من شأنه تلافى اعتراضات المعترضين لكى تستدرج من تستطيع من استدراجه للاشتراك فى نظام الحكم القائم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٥١ قضت مصر على هذه المناورات باصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يلغى القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا الموقعة بلندن فى ٢٦ أغسطس

سنة ١٩٣٦ ومن ثم ينتهى العمل بأحكام تلك المعاهدة والاتفاق المرافق لها الخاص بالإعفاءات والميزات التى تتمتع بها البريطانية الموجودة فى المملكة المصرية وينتهى العمل كذلك بأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان » وباصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يكون للسودان دستور خاص تعده جمعية تأسيسية تمثل أهالى السودان وينفذ بعد أن يصدق عليه الملك ويصدره » والذى تنص المادة الرابعة منه على أنه « يحتفظ بالشئون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والنقد فيتولاها الملك فى جميع أرجاء البلاد » وبإصدار القانون الذى تنص المادة الثانية منه على أن « الملك يلقب بملك مصر والسودان » .

أما الاستعمار فى كينيا فقد بدأ بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق إفريقيا البريطانية وحاول تلك الحكومة محل الشركة فى « الحقوق » ! التى اغتصبتها من ملوك وزعماء الأقطار النيلية . فقى عام ١٨٩٥ أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على المنطقة التى تقع بين ممباسا — على شاطئ المحيط الهندى — وحدود أوغندة .

وقد بدأ المستعمر البريطانى العتيد لورد ديلامير منذ ذلك العهد يضع أسس الاستعمار فى هذا القطر النيلى الذى

رأى أن جوه المعتدل يصلح لإقامة الأوربى الأبيض إقامة صحية لا تحد من نشاطه . كما رأى أن هذا القطر الواسع المساحة لا يضم إلا قلة فى عدد السكان تتيح للمستعمرين البيض أن يتحكموا فى اقتصاده. وقد خلفه هناك « سير تشارلز أيليوت » فنفذ برنامجه الاستعمارى منذ عام ١٩٠٠ . وأذاع أن أراضى كينيا الزراعية المعروفة باسم « الأراضى العالية » Highlands إنما تعد « بلاد الرجل الأبيض » ومد خط سكة حديدية طوله تسعمائة كيلو متر وأكد أن كينيا ستسد حاجة المستعمرين البيض دون الالتجاء إلى قروض خارجية .

وانتقلت شؤون الحماية على كينيا إلى وزارة المستعمرات البريطانية.

وفى عام ١٩٠٨ تدفقت جموع المستعمرين وفتحت الأراضى الواقعة شمال نيروبى إلى جبل كينيا للاستعمار بمد خط سكة حديدية وأرغمت قبيلة « المازى » على هجر أرض وطنها لهؤلاء المستعمرين . . .

وقد حاول ديلامير أن يحصل من الحكومة البريطانية لكينيا — عندما بلغ عدد المستعمرين الأوربيين فيها نحو ستة آلاف — على الحق فى الحكم الذاتى لصالح أولئك المستعمرين ولكن اشتعال نار الحرب العالمية الأولى عاق تحقيق ذلك الكلام وفى عام ١٩٢٠ أصبحت كينيا مستعمرة تابعة للتاج البريطانى

وزالت صفة « الحماية » عنها .

أما القطر النيلى الثالث من أقطار منابع النيل وهو تنجانيقا فقد بدأت قصة استعماره فى عام ١٨٨٤ بإنشاء الدكتور كارل بيترز لشركة الاستعمار الألمانى وبإسراعه فى عقد ست معاهدات مع رؤساء القبائل الإفريقية على شاطئ القارة الشرقى . وفى فبراير عام ١٨٨٥ حصل على ضمان من إمبراطور ألمانيا بحماية « الحقوق » ! التى تنازل أولئك الرؤساء الإفريقيون إلى الشركة عنها. وقد لقى الاستعمار الألمانى مقاومة عنيفة من سلطان زنزبار المسلم وسارعت الشركة الألمانية إلى استخدام العنف بل التوحش فى إخضاع العرب الذين تعرضوا لها والذين كانوا يتسيطرون على طريق القوافل بين الشاطئ الشرقى وبحيرة تنجانيقا واستعانت الشركة بقوة عسكرية قدمت من ألمانيا للتغلب على مقاومة العرب وزعماء القبائل النيلية .

وفى أول يناير ١٨٩١ فرضت ألمانيا حمايتها على تنجانيقا وعينت « حاكماً إمبراطورياً » .

واتسم الاستعمار الألمانى فى تنجانيقا بطابع دموى يفسره بعض الباحثين فى شئون هذه الأقطار النيلية بأنه يعود إلى افتقار الألمان إلى الخبرة فى الاستعمار ! (١)

---

(١) Louis Roux : Kenya, Tanganycka, Uganda P. 70

واشتعلت بين عامى ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ نار ثورة لم تكن تتوقعها سلطات الاستعمار الألمانية من قبائل جنوب تنجانيقا فقابلتها هذه السلطات كعادتها بوسائل القمع الوحشية التى تركت أثراً فى نفوس النيليين من أهل المنطقة ولكنها دفعت الحكومة الألمانية فى نفس الوقت إلى تعديل نظام إدارة البلاد وأنشأت الحكومة الألمانية وزارة خاصة فى برلين وفصلت بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية فى القطر المحمى وحاولت أن تحكم هذا القطر بنفر قليل من الموظفين الألمان. وفى عام ١٩٠٤ مدت خطاً حديدياً وصل إلى « موشى » فى منطقة جبال كلمنجارو وفى عام ١٩١٤ مدت خطاً حديدياً آخر يصل بين دار السلام وكيجوما على بحيرة تنجانيقا وكانت تهدف من مد هذه السكك الحديدية إلى حث المستعمرين الألمان على استغلال هذا القطر. وقد وصلت قيمة الصادرات إلى أربعة ملايين من الجنيهات قبيل الحرب العالمية الأولى.

وفوضت معاهدة فرساى لبريطانيا أدارة تنجانيقا طبقاً لشروط الانتداب التى وضعتها عصبة الأمم حتى عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك التاريخ وضعت تحت وصاية الأمم المتحدة. وقد تلقت عام ١٩٤٨ أول زيارة من اللجنة المكلفة بمراقبة هذا النظام الدولى من قبل هيئة الأمم المتحدة.

صيحات نيلية حرة

من الثابت أن أول صيحة فى سبيل تحرير وادى النيل من التدخل الأجنبي قد ارتفعت فى شمال الوادى وعلى وجه التحديد فى مصر إذ تقدم بعض المصريين لزعامة الرأى العام فى أوائل عهد الخديوى توفيق وألفوا حزباً سرياً سموه الحزب الوطنى بزعامة محمد سلطان وأحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباظة وحسن الشريعى وأصدروا منشوراً فى ٤ نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الاعتداء على سيادة مصر(١)

وقد تطور هذا البرنامج فيما بعد عندما تبين زعماء الشعب المصرى أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكماً استبدادياً فأعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن

١ ــ المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعها

---

(١) أحمد عرابى — «كشف الستار عن سر الأسرار — فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية» ص ١٤٩

ويجعلها ولاية عثمانية .

٢ — الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والإلحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكماً نيابياً

٣ — إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم

٤ — زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له

٥ — جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية .

٦ — إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة الأمة(١) .

والنظرة الأولى لهذا البرنامج يتبين منها أنه تضمن الخطوط الرئيسية الخارجية لمطالب الشعب المصرى فى الحياة الحرة الكريمة وأنه امتاز برجولة التعهد بمقاومة كل محاولة للاعتداء على سيادة

---

(١) Blunt : Secr t History of the English Occupation P. 556

وقد نشر البرنامج بعدد جريدة « التيمس » الذى صدر فى أول يناير عام ١٨٨٢ .

مصر بالقوة . وقد أثبت هذا الحزب فعلا فيما بعد أنه قاوم الجيوش الإنجليزية التى غزت مصر عام ١٨٨٢ المقاومة العسكرية التى كانت فى طاقة البلاد وقتئذ .

ولما بدأ مصطفى كامل حركته الخالدة للمطالبة بحقوق الشعب المصرى دعا إلى تمجيد المصرية ورفع شأنها فكان أول زعيم نيلى فهم نفسية الجماهير فسما بها وقضى على الرجعية التى كانت سائدة والتى كانت تتنصل من الانتساب إلى المصرية بجملته المأثورة، لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا(١) .

وكانت عقليته السياسية وهضمه لأساليب الاستعمار من النضوج بحيث قال « باطلا يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهليها حكومة دستورية . لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين .

وقامت مصر بعد ذلك بثورتها عقب حرب ١٩١٤—١٩١٨ بزعامة المغفور له سعد زغلول باشا وقد حلل بعض المؤرخين الأوربيين المتوفرين على دراسة تاريخ الشرق الأدنى هذه الثورة فقرروا أنها اعتمدت على شخصية الزعيم المصرى القوية

(١) خطبته بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

وأن برنامجها كان يتخلص فى شيئين : الاستقلال وحكم الشعب بواسطة الشعب(١).

ومركز وادى النيل الجغرافى يجعل له أهمية دولية خاصة ففى هذا الجزء من العالم لا تزال تتصارع القوى الدولية للسيطرة على أهم طرق المواصلات فى العالم لكى تفوز بالسيادة على هذا العالم .

وفى هذا الجزء يبدو جلياً كيف يقف نظامان من أنظمة التحكم فى العالم . أحدهما نظام الاستعمار الأنجلو سكسونى القائم على التوسع التجارى والصناعى لصالح الرأسمالية تؤيده دعاية سداها المبادئ المسيحية والديمقراطية ويوحى به الوهم بأرستقراطية الجنس « النورديكى » الذى يقطن شمال أوربا . والآخر نظام الاتحاد السوفيتى القائم على التوسع الاشتراكى الذى يوحى به مثل أعلى جديد يعلن المساواة بين جميع الأجناس والشعوب مساواة مطلقة كما يعلن استعداده لمساعدة جميع الشعوب الراغبة فى التحرر .

وأمام هذا الجهد الذى يبذله النظامان اللذان لم تطمئن الشعوب النيلية إلى كليهما تجد هذه الشعوب نفسها فى عراك

---

(١) Hans Kohn: Western Civilisatin in the Near East. P. 83

مع خصمها الخارجى وهو الاستعمار الذى يرى من مصلحته أن تبقى هذه الشعوب فى حالة ضعف وفى مستوى منخفض من الحياة وهى حالة يعرف الخصم المستعمر كيف يستغلها .

وقد ورثت الشعوب النيلية من الماضى تركة مثقلة بالفقر وقل التعاون بينها وهذه النقائص تنبىء بخلق جيل من الزعماء المثقفين الذين يحسون بها ويتعهدون بالقضاء عليها[١] .

ومما لا شك فيه أن التوسع الاستعمارى الأنجلو سكسونى قد أساء إلى وادى النيل كما أساء إلى غيره من بلاد الشرق الأدنى فقد بلغ من أثرة السياسة الاستعمارية أثرة وحشية فى استغلال هذه البلاد وفى اختيار حكومات عاجزة لا ضمير لها من أبنائها لحكمها أن تسببت فى خراب بعضها وتعريض كافة بلاد الشرق الأدنى للخراب[٢] . وقد تبين فعلا بعد الحرب العظمى الأولى أن الغرب قد نجح فى غزو الشرق مرة أخرى كما فعل أثناء الحروب الصليبية[٣] مع فرق أن الغزو الحديث كان لأغراض استعمارية اقتصادية. ويكفى أن أذكر هنا أن مصر — وهى دولة مزدحمة بالسكان وغنية —

---

(١) المرجع السابق صحيفة ٦

(٢) Morgan Shuster : The Strangling of Persia.

(٣) Hans Kohn. — المرجع السابق الإشارة إليه — ص ٦٨

قد احتلت من عام ١٨٨٢ وظلت تعانى ذلك الاحتلال إلى يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ عند ما أعلنت الحكومة الإنجليزية تصريحها المعروف باستقلال مصر بل إلى مابعد ذلك بأعوام .

وفى خلال تلك الأعوام الأربعين لم تتورع الإدارة الأجنبية التى كانت وحدها مسئولة عن وزارة المعارف العمومية عن ترك الأمية متفشية فقد أثبت إحصاء عام ١٩٣٧ أن نسبة اللذين يستطيعون القراءة والكتابة من الذكور عشرين فى المائة من مجموع عدد السكان ونسبة اللاتى يستطعنها من الأناث ٤ فى المائة . وقد اعترف اللورد كرومر فى تقريره عن مصر عام ١٩٠٥ بأن من يقابل بين صناعة مصر الآن وبين ما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة مضت ـ أى قبل الاحتلال البريطانى ـ يجد أن الأمكنة التى كانت مزدحمة بصناع الغزل والحياكة والصناعة والخيم والأحذية والصياغة والعطارة والأدوات النحاسية والسروج والمناخل والأقفال قد قلت أو اندثرت وقامت على أطلالها مقاه وحوانيت ملأى بالبضائع الأوربية .

ولا شك أن سياسة التوسع الاستعمارى فى مصر قد قضت بألا تكون فى مصر زراعة غنية إلا زراعة القطن ولكن المصريين لا يجنون منها ربحاً صناعياً منذ أغلقت مغازلهم

لأن رجال الاحتلال رأوا وجوب إغلاقها لكى تربح مغازل لانكشير ومانشستر وليفربول وبذلك يصدر القطن من مصر إلى المغازل الإنجليزية ويعود إليها قماشاً باهظ النفقات[١]

وثابت أن الاستعمار البريطانى فى السودان قد اتبع نفس الطريق فى عرقلة التقدم العلمى فإن الإحصاء الرسمى لحكومة السودان عام ١٩٤٧ يقرر أن مجموع الطلبة الذين يتلقون العلم فى مختلف أنواع المعاهد ذكوراً وأناثاً فى مديريات شمال السودان الست لا يتجاوز ٨٤٨٢٦ ومن المعلوم أن عدد سكان هذه المديريات الست خمسة ملايين كما أن هذا الإحصاء نفسه يقرر أن مجموع هؤلاء الطلبة والطالبات فى مديريات جنوب السودان الثلاث لا يتجاوز ١٨٨٣٥ . ومن المعروف أن عدد سكان هذه المديريات الثلاث يتراوح بين مليونين ونصف وثلاثة ملايين[٢] .

ومن الواضح أن عدد هؤلاء الطلبة من القلة بحيث يسم هذا الجزء من وادى النيل بطابع التأخر كما يسم الاستعمار بطابع الإمعان فى عرقلة كل نهضة علمية .

---

(١) جوليت آدم — « إنجلتره فى مصر » ص ١٨٤ (ترجمه على فهمى كامل)

(٢) تقويم السودان عام ١٩٤٩ صحيفة ١٠٢ — ١٠٣

ويقتضينا الواجب فى هذا البحث العلمى أن نعترف بأن الصيحات الحرة الأولى التى ارتفعت بمهاجمة الاستعمار البريطانى فى الأقطار النيلية الثلاث التى ينبع منها النيل وهى أوغندة وكينيا وتنجانيقا كانت صيحات المفكرين الأحرار من الأوروبيين أنفسهم الذين أبى تفكيرهم الحر أن يسدلوا الستار على ما يرتكبه مواطنوهم من آثام فى حق الملايين من إخواننا النيليين أهل هذه الأقطار .

فقد كانت الفكرة — قبل إلغاء الرقيق — فى استعباد الأوروبيين للإفريقيين فكرة أساسها اختلاف دين هؤلاء المستعمرين عن دين الإفريقيين أكثر منها فكرة إختلاف لون هؤلاء المستعمرين عن لون الافريقيين والدليل على ذلك أنه عند ما كان يعتنق الإفريقى المسيحية كان يمنح نظرياً حقه فى استرداد حريته(١) .

ولذلك كان اتصال الإفريقى بالمستعمر الأوربى يختلف اختلافاً بيناً عن سابق اتصاله بقوم آخرين وفدوا إلى هذا الإفريقى من الشرق . فالعرب الذين حملوا الإسلام إلى إفريقيا وإن جاروا المسيحيين — قبل إلغاء الرقيق — فى استعباده

---

(١) MacCrone Race Atlitudes in South Africa, 1937 P. 7.

إلا أن ديمقراطية الإسلام لا تقر أى تفريق بين أبناء الجنس البشرى بسبب اختلاف ألوانه .

وقد لوحظ أن الإفريقى على استعداد بل إنه تواق حتى يومنا هذا لأن يقدم خدماته إلى العربى[١]

وتثبت الإحصائيات أن عدد الأوربيين بالنسبة لكل عشرة آلاف نيلى إفريقى لا يزيد عن ستة فى أوغندة وستة عشر فى تنجانيقا وخمسة وستين فى كينيا .

وقد ألفت وزارة المستعمرات البريطانية عام ١٩٣٦ لجنة لدراسة الحالة الاقتصادية فى الأقطار النيلية وفى غيرها ونشر تقرير هذه اللجنة فى عام ١٩٣٩ فقرر بأن إيراد الغالبية العظمى من شعوب المستعمرات أدنى بمراحل من الحد الأدنى المطلوب لكى يقوم بأود هذه الشعوب وأن أطعمة هذه الشعوب تنقصها البروتينات الحيوانية والكلسيوم والفسفور والحديد والصوديوم والفيتامينات المختلفة وأن الغذاء غير المناسب يعد السبب الرئيسى لارتفاع نسبة وفيات الأطفال التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد ويصل فى بعض الأنحاء إلى ثلثمائة فى الألف وهذا الرقم يوازى عشرة أضعاف وفيات الأطفال فى جنوب استراليا . مثلا حيث لا

(١) Orde Browne : African Labourer. P. 13.

تزيد نسبة الوفيات عن ٣٠ – ٣٥ فى الألف من المواليد وفى إنجلترا لا تزيد عن ٥٧ فى الألف[١] .

ويقرر هؤلاء الباحثون البريطانيون فى شئون الأقطار النيلية الثلاث التى ينبع منها النيل أن مستوى التعليم فيها من الانحطاط بحيث لا يمكن أن يقارن بما يناله « السيد » الأبيض من التعليم . ففى كينيا – كما قرر وزير المستعمرات فى مايو سنة ١٩٣٩ – بلغ ما أنفق على كل طفل أوروبى فيها خلال عام ١٩٣٧ ثمانية عشر جنيها واثنتى عشر شلناً بينما لم يزد ما انفق على كل طفل نيلى من أهالى القطر عن أربعة عشر شلناً وثلاث بنسات وقد جنى عشرون فى المائة من هذا المبلغ عن طريق فرض ضرائب مباشرة على هؤلاء الأهالى النيليين[٢]

وتعد كينيا بحق نقطة سوداء فى الاستعمار البريطانى سواء من جهة مستوى الأجور أو أنظمة تسخير العمال بالقوة فى العمل فالنيلى من أهالى كينيا الذى يعمل فى مناجم الذهب لا يتقاضى فى الشهر أكثر من إحدى عشر شلناً وستة عشر بنساً وكثيرون من هؤلاء النيليين التعساء يقضون نصف العام فى مثل هذا العمل لكى يتمكنوا من كسب ما يكفى لدفع

---

(١) A.G. Russell : Colour, Race and Empire, P. 32.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦

الضريبة المستحقة لحكومة الاستعمار وقدرها ثلاثون شلناً فى العام . ولكى يوفروا إذا أمكن بعض المال الذى يسد النقص فى المحصول الذى تغله قطعة الأرض الصغيرةالتى يسمح للواحد منهم باستغلالها والتى تتراوح مساحتها بين ثلاثة وأربعة أفدنة . فإذا عجز النيلى فى كينيا عن مواجهة هذه التكاليف كان عليه أن يسخر أطفاله فى العمل وقد قضى القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ بأن والد الطفل أو الولى الشرعى على الطفل الإفريقى يجوز له إذا تجاوزت سن هذا الطفل عن عشر سنوات بموافقة هذا الطفل ! أن يمرنه فى العمل الذى يؤديه الوالد أو الولى لمدة لا تتجاوز خمس سنوات وقد اقترح أن ترفع هذه السن إلى اثنتى عشر سنة فى الأعمال العادية وإلى أربعة عشر سنة فى الأعمال الصناعية فماذا يفعل هؤلاء الأطفال ؟ إنهم أولا قد يرسلون إلى مكان يبعد خمسمائة ميل عن منازلهم حيث لا تفرض أية رقابة عليهم وحيث يتعرضون للآثام الخلقية وللإدمان على الخمر . وقد ألفت حكومة كينيا لجنة أقرت بأن حوادث إدمان هؤلاء الأطفال على الشراب قد ثبتت ولكنها لم تر فيها ما يستحق أن توصف بأنها مشينة ! (١) .

وقد نشرت مجلة العمل الدولية فى مارس سنة ١٩٤١ أن

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥

حوادث إضراب العمال فى كينيا قد تكررت وأنهم تبينوا أن الإضراب سلاح فعال وأن العامل الإفريقى يتقدم بسرعة وأن من الواجب القيام بتحرى أسباب شكواه تحرياً يستلزم الصبر والعطف ويستهدف وضع علاج حاسم وأساس للعلاقة بين أصحاب العمل والعمال ثم تساءلت المجلة هل يقدر لهذه السحابة التى لا تتجاوز قبضة اليد أن تتطور فتصبح زوبعة من زوابع خط الاستواء ؟

وقد ظهرت فى كينيا جريدة باسم « بارازون » اتسع انتشارها عام ١٩٤٢ بسبب دفاعها عن حقوق المواطنين ضد أطماع المستعمرين البيض .

ويذهب بعض الباحثين فى شؤون الأقطار النيلية إلى أن كينيا — وهى أتعس مكان فى القارة[١] — التى تبلغ مساحتها خمسمائة واثنين وثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة ويسكنها أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً من النيليين الإفريقيين لا يزيد عدد الأوربيين فيها عن تسعة وعشرين ألفاً وخمسمائة وعدد العرب عن أربعة وعشرين ألفاً وعدد الهنود عن أربعة وأربعين ألفاً . وثلث هؤلاء المهاجرين تقريباً يسكن فى العاصمة « نيروبى » — هذا القطر النيلى كانت تحكمه قبل الاستعمار

---

(١) Bigland; Pattern in Black and White, P. 130.

البريطانى قبيلة « المازى » التى رأينا فى الفصل السابق أن أفرادها يمتازون بمهارتهم الحربية وقوتهم الجسدية وأنهم من الرعاة الذين لا يهتمون بالزراعة. فلما بدأ الاستعمار البريطانى بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية دفعوا المازى إلى أماكن خصصت لهم يطلق عليها فى التعبير الإنجليزى اسم Reserves لا تكفيهم وأغتصب البيض أراضيهم وتبلغ مساحة الأراضى المغتصبة التى لا يحق لغير البيض استغلالها ستة عشر ألفاً وسبعمائة ميلاً مربعاً وبينما أصبحت كينيا موطنا ممتازاً للأوربيين تحولت إلى لعنة على أهلها الأصليين الذين فرضت عليهم أنظمة تجعل منهم أنصاف عبيد[١] ويحرم على هؤلاء النيليين أن يزرعوا نباتات تنافس ما يزرعه البيض كما أنهم مجردون من كافة المزايا السياسية أو حتى الأمل فى هذه المزايا ومحرومون من أى تعليم فنى . وهذه العقلية الاستعمارية عقلية فاشية بحتة وقد ثبت فى قضية قتل حدثت فى كينيا عام ١٩٤١ كان المجنى عليه فيها أحد الأوروبيين أنه كان يحتفظ بنشرات فاشية . وأنه كان يخطب فى اجتماعات يعقدها الأوربيون الفاشيون. وأنه كان يحمل بطاقة عضوية فى الحزب الفاشى البريطانى الذى يتزعمه « موزلى » وأن بعض

A.G. Russell : Colour Race and Empire P. 78 (١)

أعضاء هذا الحزب قد قبض عليهم فى هذه القضية[١] .

وقد حول اقتصاد زراعة البن فى كينيا وتنجانيقا إلى اتجاه لا هدف له إلا تحقيق مصالح المستعمرين البيض ففى المدة السابقة على عام ١٩٢١ كان النيليون يملكون مائة وخمسة وعشرين الف شجرة بن فى منطقة كليمنجارو فطالب المستعمرون بتحريم الزراعة على أهالى البلاد[٢] ولكن هذا الطلب لم يجب وفى عام ١٩٢٢ كان عدد زارعى البن ستمائة من النيليين وارتفع هذا العدد فى عام ١٩٢٦ إلى ثمانية آلاف وكان عدد أشجار البن فى عام ١٩٢٢ مائة وثمانين الف شجرة فارتفع فى عام ١٩٢٩ إلى مليونين ونصف مليون شجرة وعاد المستعمرون البيض إلى المطالبة بفرض رسوم رخصة على زراعة البن بواقع عشرة جنيهات على كل مزارع وهو مبلغ يزيد على متوسط إيراد الفرد النيلى فى كينيا لكى يشلوا نشاط هؤلاء النيليين ويرغموهم على هجر هذه الزراعة ولكن هذه المحاولة فشلت هى الأخرى .

وقد بلغ من قسوة النظام المفروض لتحصيل الضرائب أن وضع تسعة عشر ألفاً من هؤلاء الإفريقيين النيليين فى

---

(١) جريدة الديلى تلجراف مايو سنة ١٩٤١

(٢) Ormsby-Gore : Report on East Africa P. 152.

عام ١٩٣٧ بمعسكرات الاعتقال فى كينيا لا لسبب إلا لعجزهم عن دفع الضرائب . وقد أعلن مستر مالكولم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانى صراحة أثناء مناقشة تقرير وزارته عن عام ١٩٣٩ أنه إذا رؤى رجل فى بعض المستعمرات يأكل قطعة من اللحم فإنه يثير الدهشة التى يثيرها الرجل الإنجليزى إذا رؤى يأكل ورقة من أوراق البنكنوت !

ولم تقتصر القسوة فى جباية الضرائب على كينيا وحدها بل تعدتها إلى تنجانيقا فقد بلغ عدد النيليين الذين سخروا فى العمل لسداد الضرائب المستحقة عليهم عن عام ١٩٣٦ واحد وثلاثين ألفاً وستمائة وخمسة(١)

وقد حرم المستعمرون البيض فى الأقطار النيلية الثلاث حق تأليف الجماعات السياسية — التى أحلها البيض لأنفسهم — على النيليين أهل البلاد . كما استغلوا ظروف الحرب العالمية الثانية للمعارضة فى أى تعديل إصلاحى فى التشريع الخاص بنقابات العمال وقد اعتبرت « جمعية كيكويو المركزية » وجمعيتان أخريان من جمعيات العمال هيئات خطرة ومخلة بأمن المستعمرة(٢)

---

(١) A.G. — Russell, — Colour, Race and Empire P. 110

(٢) Leys : Colour. Bar in East Africa P. 140

وفى المجلس التشريعى لكينيا يبلغ عدد ممثلى المستعمرين الأوربيين الذين رأينا أن مجموعهم لا يتجاوز ثلاثين ألفاً بما فيهم النساءَ والأطفال أحد عشر نائباً وعد ممثلى الهنود الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وأربعين ألفاً — خمسة نواب وممثلى العرب الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وعشرين ألفاً — نائب عربى بينما أهل البلاد الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً لا يمثلهم إلا نائبان معينان بواسطة سلطات الاستعمار !

هذه صفحة من صفحات الاستعمار الأوربى فى وادى النيل وقد تبينا فى باب « الشعوب النيلية » كيف أن شعوب هذه الأقطار النيلية تكون وحدة « جنسية » لا انفصام بينها كما تكاد تكون وحدة لغوية . وتبينا أيضاً أن الاستعمار الأوربى قد فرض على هذه الأقطار حدوداً مفتعلة سياسياً لا يبررها أى اعتبار جغرافى أو تاريخى أو « جنسى » .

وقد تبين المستعمرون الأوربيون أن الفصل بين هذه الأقطار النيلية إسراف فى التعسف ففكرت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٩ فى إنشاء « اتحاد » بين أقطار منابع النيل الثلاثة كينيا المستعمرة . وتنجانيقا التى تحت الوصاية بانتداب من عصبة الأمم . وأوغندة التى تحت الحماية. ولكن اللجنة التى ندبتها

عصبة الأمم عام ١٩٣٣ للنظر فى ذلك رفضت الفكرة على أساس أن انتداب بريطانيا لإدارة تنجانيقا لم يكن قد انتهى بعـــد .

وعادت الفكرة إلى الوجود بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ باجماع ممثلى الأوروبيين فى كينيا وأوغندة ولكن الفكرة رفضها وكيل وزارة المستعمرات البريطانية لنفس السبب .

وفى عام ١٩٤٥ وضعت الحكومة البريطانية مشروع قانون قبله الأوربيون المهاجرون إلى الأقطار النيلية الثلاثة مع بعض تحفظات ورفضه الهنود فأعيد تقديمه عام ١٩٤٧ وصدر رغم معارضة الهنود وهذا القانون يحقق نوعاً من « الاتحاد » بين الأقطار النيلية إذ أنه أنشا ثلاث هيئات تتقاسم السلطات التنفيذية والتشريعية .

فالهيئة الأولى وهى « اللجنة العليا لشرق إفريقيا » تضم حكام الأقطار الثلاثة . كينيا وتنجانيقا وأوغندة ورئاستها — بنص القانون — للأول .

والهيئة الثانية وهى « الهيئة التنفيذية لشرق إفريقيا » تضم رئيس اللجنة السابقة ومديرى المالية والمواصلات والبريد وسكرتير الشؤون الاقتصادية والمستشار القانونى لكل من الأقطار الثلاثة ورئيس الجمعية المركزية وهى الهيئة الثالثة .

والهيئة الثالثة وهى « الجمعية المركزية لشرق إفريقيا » التى تتيح لأهل الأقطار الثلاثة الاشتراك فى إدارة مصالحها .

وهى مكونة من بعض أعضاء الهيئة الثانية ممثلين للإدارة المركزية ومن أعضاء غير موظفين منتخبين بواسطة المجالس الشريعية للأقطار الثلاثة على أساس أربعة مندوبين عن كل قطر ويمثل الأوربيين فى هذه الهيئة اثنان ويمثل الهنود مندوب واحد كما يمثل جميع الإفريقيين أهل البلاد مندوب واحد مع أننا رأينا أن مجموع عدد هؤلاء الإفريقيين فى هذه الأقطار الثلاثة هو ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف بينما عدد الهنود فى الأقطار الثلاثة لا يزيد عن مائة وتسعة وستين ألفاً وبينما عدد الأوربيين لا يزيد عن ثلاثة وخمسين ألفاً !

ولقد اهتم بعض المفكرين المصريين بمصير هؤلاء الملايين من إخواننا الإفريقيين النيليين الذين يعيشون حول منابع النيل فاقترح بعضهم « إنشاء اتحاد نيلى » يجمع مصر والسودان وأوغندة[1] وقد يلاحظ على هذه الفكرة اقتصارها على ضم أوغندة إلى هذا الاتحاد النيلى مع أن وادى النيل يشمل كما رأينا القطرين الآخرين وهما تنجانيقا وكينيا .

ودعا البعض الآخر إلى إدماج مبدأ « إفريقيا للإفريقيين »

---

(١) فؤاد أباظة باشا — مجلة المصور العدد ٩٤٩

كقاعدة من قواعد القانون الدولى العام التى لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدمجت قاعدة « أمريكا للأمريكيين » التى نادى « مونرو » بادماجها ضمن قواعد ذلك القانون(١)

وليس هذا البحث مجالا للأفاضة فى تفاصيل الشكل الذى تتخذه الجهود التى تبذل لتحرير الأقطار النيلية التى لا تزال ترسف فى أغلال هذا الاستعمار من ذل هذا الاستعمار ويكفى أن نقرر فى ختام هذا البحث أن الاجماع قد انعقد بين العلماء المحايدين الذين توفروا على دراسة شؤون هذه الأقطار على أن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية فى الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبى النيل .

فقد قرر سير صمويل بيكر الإنجليزى « أن الحضارة لم تصل إلى قلب إفريقيا إلا بعد أن امتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء »(٢)

وقرر هيلد براند الألمانى فى خطاب إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ « لا توجد

---

(١) محمود كامل — « العمل لمصر » سنة ١٩٤٥ ص ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) صمويل بيكر — كتاب الإسماعيلية ص ٤١٢

أمة أصلح — فى اعتقادى — من مصر لرفع مستوى المدنية فى إفريقيا »(١)

وقرر شيليه لونج الأمريكى « إننى أكرر أن مصر وحدها دون غيرها هى التى يتوفر لديها شعب يصلح صلاحية خاصة لخدمة هذه الأقطار الإفريقية وإلى هذا الشعب — لا إلى البعثات الأجنبية — يجب أن يتجه كل محب للجنس البشرى . وإذا شاءت العناية الإلهية أن تسعد أقاليم إفريقيا الوسطى بوسائل إنسانية فان هذا الهدف لايمكن أن يتحقق إلا بواسطة الشعب المصرى »(٢)

وقرر الفونس جويلى الفرنسى « أن استقلال مصر لا يتحقق إلا بشرط أن تمتد وحدتها مع الأقاليم الجنوبية إلى منابع النيل فان ترك هذه المنابع بين يدى سلطة أجنبية أنما هو وسيلة من وسائل الضغط الفعال على سياسة مصر الخاجية »(٣)

إن مصر لم تبد فى تاريخها قط كدولة استعمارية . وليس فى طبيعة أهلها أن يكونوا مستعمرين . بل أنها وقفت فى المحافل الدولية دائماً إلى جانب كل شعب أو مجموعة شعبية تتوق

---

(١) الدكتور محمد صبرى — مصر فى افريقيا الشرقية ص ٧٦

(٢) Chaillé Long : L'Afrique Centrale

(٣) Alphonse Gouilly : L'Islam devant le monde moderne P. 89

إلى التخلص من نير الاستعمار . وكل ما يرمى إليه هذا البحث هو لفت أنظار النيليين فى شمال وادى النيل ووسطه أى فى مصر والسودان إلى ما يعانيه إخوانهم فى جنوبه حول منابع النيل لكى يتعاون الجميع على تحرير أهل هذه المنابع وعلى أن يترك لهم كامل الحق فى اختيار شكل الحكم الذى يفضلونه .


اقرأ
السلسلة الشهرية الوحيدة التي
تعمل منذ تسع سنوات على تيسير
المطالعة الممتعة النافعة وإدخالها
إلى كل منزل في كل مدينة وقرية .
وعنوانها خير ما يوجه إلى الأفراد
والجماعات ، بل هو خير ما وجه
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
فهي :
● نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل .
● أشبه بجامعة شعبية بما تقدمه من مختلف ألوان الثقافة.
● جديرة بمطالعة الشباب والشيوخ الذين يسعون إلى متابعة العلم والمعرفة .
ثمن النسخة ٥ قروش ـ الاشتراك السنوي ٦٠ قرشا
تصدرها
دار المعارف بمصر
وهي الدار التي قضت ٦٠ عامًا
في خدمة الكتاب العربي وتعميم نشره
المركز الرئيسي
٥ شارع مسبيرو بالقاهرة
مصنع من ثقافة وضياء يسعى كل قطر يعشو إلى نبراسه
«على الجارم بك»


جنرال الكتريك
U.S.A.
ثلاجات منزلية وتجارية
اجهزة تكييف الهواء
اجهزة تبريد
أعمال الإضاءة الحديثة
مبردات للمياه
أدوات كهربائية منزلية
اشتر الأفضل..